



القلزم للدراسات التاريخية والحضارية

مجلة علمية محكمة

تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر-السودان
بالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين-الدنمارك



ISSN:1858-9952

في هذا العدد :

- إسهام الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين شعبي وادي النيل خلال القرن العشرين
أ. د. الريح حمد النيل أحمد الليث
- رجال الدين ودورهم السياسي في سلطنة سنار (الشيخ إدريس بن الأرباب أمهوجاً) (913 - 1060هـ / 1507 - 1650م).
د. عوض أحمد حسين (شبا)
- معركة أبو طليح 17 يناير 1885م ودورها في تحرير الخرطوم (دراسة تحليلية من منظور عسكري إستراتيجي)
د. عمر النور أحمد النور
- ملامح من مشاركة المرأة السودانية في الإستقلال 1956م
د. إخلاص مكاوي محمد علي
- التعدين العشوائي للذهب وأثره علي المواقع الأثرية (إقليم الشلال الثالث أمهوجاً)
د. عبدالرحمن إبراهيم سعيد علي
- أنواع التجارة والسلع التجارية في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري.
أ. يوسف عبد الله حمدان القرشي
- مقاومة حكم الاستعمار الثنائي في دارفور (1898 - 1924م)
أ. شيرين إبراهيم النور صديق



العدد الثالث والعشرون- شعبان 1444هـ - مارس 2023م

مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية علمية دولية ربع سنوية محكمة- العدد الثالث والعشرون (شعبان 1444هـ - مارس 2023م)

ردمك ISSN: 1858 - 9952



دار آريثريا للنشر والتوزيع
Arythria for Publishing and Distribution

فهرسة المكتبة الوطنية السودانية-السودان
مجلة القلزم: Alqulzum Journal for:
Historical and cultural Studies

الخرطوم : مركز دول حوض البحر الأحمر 2023
تصدر عن دار آريثيريا للنشر والتوزيع -السوق العربي
السودان - الخرطوم
ردمك: 1858-9952

مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية

الهيئة العلمية والإستشارية

- أ.د. حسن أحمد إبراهيم-السودان
أ.د. سارة بنت عبد الله العتيبي- المملكة العربية السعودية
أ.د. أسامة عبد الرحمن الأمين- السودان
أ.د. أبو هريرة عبد الله محمود يعقوب- السودان
أ.د. أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس - جمهورية مصر العربية
أ.د. السمانى النصري محمد أحمد - السودان
د. أحمد الياس الحسين - السودان
د. داود ساغه محمد عبد الله- السودان
د. سلطان أحمد الغامدي- المملكة العربية السعودية
د. سامي صالح عبد المالك البياضي- مصر
د. محمد أحمد زروق- المغرب
د. سعاد عبد العزيز أحمد السودان
د. أحمد محمد مركز- السودان
د. باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا- موريتانيا
د. عزة محمد موسى - السودان
د. حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني- السودان
د. ربيعة أحمد عمران المداح- ليبيا

هيئة التحرير

المشرف العام

أ.د.إبراهيم البيضاني

رئيس هيئة التحرير

أ.د.حاتم الصديق محمد احمد

رئيس التحرير

د. عوض أحمد حسني شبا

سكرتير التحرير

د.سلوى التجاني فضل جبر الله

التدقيق اللغوي

أ.الفتاح يحيى محمد عبد القادر

الإشراف الإلكتروني

د. محمد المأمون

التصميم الداخلي

أ. عادل محمد عبد القادر

تصميم الغلاف

ايلين عبد الرحيم ابنعوف

الآراء والأفكار التي تنشر في المجلة

تحمل وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن آراء المركز

موجهات النشر

تعريف المجلة:

مجلة (الْقُلُزْم) للدراسات التاريخية و الحضارية مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان . بالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين - الدنمارك تهتم المجلة بالبحوث والدراسات التاريخية والحضارية والمواضيع ذات الصلة لدول حوض البحر الأحمر من الناحية التاريخية والحضارية.

موجهات المجلة:

1. يجب أن يتسم البحث بالجودة والأصالة وألا يكون قد سبق نشره قبل ذلك.
 2. على الباحث أن يقدم بحثه من نسختين. وأن يكون بخط (Traditional Arabic) بحجم 14 على أن تكون الجداول مرقمة وفي نهاية البحث وقبل المراجع على أن يشارك إلى رقم الجدول بين قوسين دائريين ().
 3. يجب ترقيم جميع الصفحات تسلسلياً وبالأرقام العربية بما في ذلك الجداول والأشكال التي تلحق بالبحث.
 4. المصادر والمراجع الحديثة يستخدم أسم المؤلف، اسم الكتاب، رقم الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع، رقم الصفحة.
 5. المصادر الأجنبية يستخدم اسم العائلة (Hill, R).
 6. يجب ألا يزيد البحث عن 30 صفحة وبالإمكان كتابته باللغة العربية أو الإنجليزية.
 7. يجب أن يكون هناك مستخلص لكل بحث باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد على 200 كلمة بالنسبة للغة الإنجليزية. أما بالنسبة للغة العربية فيجب أن يكون المستخلص وافياً للبحث بما في ذلك طريقة البحث والنتائج والاستنتاجات مما يساعد القارئ العربي على استيعاب موضوع البحث وبما لا يزيد عن 300 كلمة.
 8. لا تلزم هيئة تحرير المجلة بإعادة الأوراق التي لم يتم قبولها للنشر.
 9. على الباحث إرفاق عنوانه كاملاً مع الورقة المقدمة (الاسم رباعي، مكان العمل، الهاتف البريد الإلكتروني).
- نأمل قراءة شروط النشر قبل الشروع في إعداد الورقة العلمية.

المحتويات

إسهام الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين شعبي وادي النيل خلال القرن العشرين.....(7-26)

أ. د. الريح حمد النيل أحمد الليث

رجال الدين ودورهم السياسي في سلطنة سنار (الشيخ إدريس بن الأرباب أمودجا)

(913 - 1060هـ / 1507 - 1650م).....(27-36)

د.عوض أحمد حسين (شبا)

معركة أبو طليح 17 يناير 1885م ودورها في تحرير الخرطوم (دراسة تحليلية من منظور

عسكري إستراتيجي).....(37-50)

د. عمر النور أحمد النور

ملاحم من مشاركة المرأة السودانية في الإستقلال 1956م.....(51-58)

د. إخلاص مكاوي محمد علي

التعدين العشوائي للذهب وأثره علي المواقع الأثرية (إقليم الشلال الثالث أمودجا).....(59-74)

د.عبدالرحمن إبراهيم سعيد علي

أنواع التجارة والسلع التجارية في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري.....(75-86)

أ.يوسف عبد الله حمدان القرشي

مقاومة حكم الاستعمار الثنائي في دارفور (1898 - 1924م).....(87-114)

أ.شيرين إبراهيم النور صديق

كلمة التحرير



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين.

القارئ الكريم:

بعد السلام وكامل التقدير والاحترام يسعدنا أن نضع بين يديك هذا العدد من مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية الذي يأتي في إطار الشراكة العلمية المثمرة والجادة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين (الدنمارك).

القارئ الكريم:

هذا هو العدد الثالث والعشرون من المجلة بفضل الله وتوفيقه بعد أن نجحت المجلة بواسطة هيئتيها العلمية والاستشارية وهيئة تحريرها في إصدار اثنان وعشرون عدداً من المجلة، الأمر الذي يضع الجميع أمام تحدٍ كبير يتمثل في بذل المزيد من الجهد بغرض التطوير والتحديث والمواكبة لتصبح هذه المجلة في مصاف المجلات العالمية الرائدة بإذن الله تعالى.

القارئ الكريم:

نأمل أن يكون هذا العدد أكثر شمولاً وتنوعاً من حيث المواضيع وطريقة طرحها وتحليلها ومعالجتها. ونسأل الله تعالى أن يجد المهتمين والمختصين والباحثين في هذا العدد ما يفيدهم ويضيف للبحث العلمي. وأخيراً نجدد شكرنا وامتناننا لكل الذين أسهموا في إنجاح هذا العدد من باحثين، ومحكمين ونجدد دعوتنا للجميع بأن أبواب النشر مشرعة في جميع مجالات القلزم العلمية المتخصصة.

أسرة التحرير

إسهام الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين شعبي وادي النيل خلال القرن العشرين.

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - قسم التاريخ
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى
المملكة العربية السعودية

أ. د. الريح حمد النيل أحمد الليث

المستخلص:

لا شك أن لكل شعب ثقافة يعتز بها ويعتد ويباهي بها الآخرين ويفتخر أياً كانت نظرة أولئك لثقافته وموروثه الثقافي. فكان للكتاب المطبوع التأثير العظيم في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين شعبي وادي النيل منذ بداية القرن العشرين ، فمن خلاله تعرف كلاهما بتفاوت في درجة التعرف على الآخر، فتوثقت الصلات الثقافية وقويت العلاقات الأخوية بينهما. تمثل الهدف من الدراسة في إبراز الدور الذي لعبه الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين مصر والسودان، إعطاء صورة متكاملة لما كان عليه التواصل الثقافي بين الشعبين منذ الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، تسليط الضوء على دور الكتاب المطبوع في الإسهام في نشر ثقافة التواصل الحضاري بين شعبي وادي النيل، واستعراض آراء بعض الكتاب من البلدين عن التواصل الحضاري الثقافي وإبراز إسهام الكتاب في التواصل الحضاري بين شعبي وادي النيل من خلال تقديم نماذج مختارة لكتب وكتاب مصريين وسودانيين. اتبعت في إعداد البحث منهج البحث التاريخي والتحليل والمقارنة في معالجة ما توفر من معلومات عن الموضوع في بعض المراجع الورقية وما توفر في الشبكة العنكبوتية. توصلت إلى عدد من النتائج أهمها أن الكتاب المطبوع لعب أدواراً حاسمة في تقوية أواصر العلاقة الأخوية بين الشعبين الشقيقين من خلال تقوية قنوات التواصل الثقافي وأن الكتاب المصري أقرب إلى مزاج القارئ وذوقه وطبعه لأنه استطاع أن يعبر بوضوح عن كثير من الحاجات الثقافية التي يطلبها القارئ أو المتلقي السوداني وأن الكتب السودانية الموجودة بالمكتبات المصرية لا يمكن مقارنتها من حيث عددها بعدد أية كتب مصرية موجودة في بضعة رفوف مكتبة من المكتبات السودانية أو مكتبة منزلية صغيرة.

الكلمات المفتاحية: الكتاب المطبوع- التواصل الثقافي- شعبي وادي النيل- القرن العشرين.

“The contribution of the printed book in spreading the culture of communication between the people of the Nile Valley during the twentieth century

Prof.El raiah Hamadelnil Ahmed Allaith

Abstract:

There is no doubt that every nation has a culture that they cherish and brag about and are proud of, regardless of their view of their culture

and civilizational heritage. The printed book had a great influence in spreading the culture of cultural communication between the peoples of the Nile Valley since the beginning of the twentieth century. Through it, both of them got acquainted with the difference in the degree of knowledge of the other, and the brotherly relations between them were strengthened. The purpose of the study highlighting the role played by the printed book in spreading the culture communication between Egypt and Sudan, Giving an integrated view for the cultural communication between the two nation since the thirties and forties of the twentieth century, giving an integrated view for the cultural communication between the two nation since the thirties and forties of the twentieth century, Giving an integrated view for the cultural communication between the two nation since the thirties and forties of the twentieth century, Giving an integrated view for the cultural communication between the two nation since the thirties and forties of the twentieth century. Research methodology represented by historical research methodology, analysis and comparison, reliance on a availability information about the subject in some references and on the Internet. The most important results: the printed book played decisive roles in strengthening the fraternal relationship between the two brotherly nations by strengthening the channels of cultural communication, the Egyptian book is closer to the reader's mood, taste, and temperament; because he was able to clearly express many of the cultural needs required by the Sudanese reader or recipient, the Sudanese books found in Egyptian libraries cannot be compared in terms of their number with the number of any Egyptian books found on a few shelves in a Sudanese library or a small home library

مدخل:

ظل الإنسان ولقرون طويلة مضت يسجل ما يحدث له بطرق وأدوات بدائية بسيطة غير أن كثيرا مما سجله فقد ولم يطلع عليه أحد نتيجة لتضافر عوامل عديدة بعضها بفعل الطبيعة والآخر بسبب الانسان نفسه من ثم ضاع مخزون ضخم من الأخبار والقصص والروايات والافكار والثقافات الخاصة بذلك الانسان، وتقطعت نتيجة لذلك أوصال التواصل الثقافي بين الشعوب،

وظل الحال كذلك إلى أن ظهرت بواكير الطباعة باختراع الصيني (بي شينغ) عام 1401م الطباعة بالحروف متحركة والمنفصلة لم يستفد العالم منها كثيراً لكثرة حروف الهجاء الصينية.

وبعد أربعة قرون من اختراع (بي شينغ) شهدت الطباعة تطوراً سريعاً باختراع أنواع حديثة من آلات الطباعة عندما قام الألماني يوهانس غنزفلايش غوتنبيرغ (Johannes Gutenberg) عام 7441م أو نحو 0541م بتطوير علم الطباعة الذي اخترع في كوريا عام 4321م، باختراعه آلة الطباعة المعدنية بالأحرف المتحركة. تلا ذلك اختراع آلات طباعة أكثر تطوراً، فقام الألماني فريدرش كويننج عام 1181م باختراع آلة طباعة تعمل بالبخار زادت من كفاءة الطباعة وسرعتها فأدى ذلك إلى تسهيل حركة التواصل الثقافي بين الشعوب وزادت الرغبة في اختراع آلات طباعة أكثر تطوراً من سابقتها، فكان اختراع الأمريكي ريتشارد هيو (Richard Hoe) المطبعة الدوارة، وتمكن الأمريكي (وليم بولوك) عام 5681م من اختراع المطبعة الدوارة فائقة السرعة، كما تمكن (أوتما ماجنتيلر) من تسجيل براءة اختراع مطبعة الليثوتيب، وكذلك الأمريكي (تولبرت لانستون) الذي اخترع مطبعة المونوتيب عام 7881م. الجدير بالذكر أول حروف طباعة عربية ظهرت عام 8641م على يد (مارتن روث)، وظهرت أول مطبعة في مصر أثناء حملة نابليون عام 8971م وعرفت بمطبعة البروجاندا أي الدعاية وأول مطبعة ظهرت في السودان كانت مطبعة حجرية صغيرة وذلك عام 1381م... إلخ، ومما لاشك أن اختراع آلات الطباعة وتطورها زاد من زاد من أعداد الكتاب المطبوع ونشره على نطاق واسع وأسهم في اتساع دائرة التواصل الثقافي بين الشعوب.

الكتاب المطبوع:

إن الغاية الأساسية من وجود الكتاب والأدباء هي تقديم الأطروحات الأساسية في بنية المجتمع ووضع الحلول المناسبة لها، ولا شك في أنها مسؤولية عظيمة تقع على عاتق المفكرين والأدباء والمبدعين الذين قدر لهم أن يصنعوا تاريخ الأمة ويقفون وراء كل أداء قيمى وإنسانى واجتماعى لتحقيق التقدم والرقى في معراج السمو ومسالك الحضارة والتقدم إسعاداً للبشرية. إن الأمة العريقة العظيمة هي التي تحافظ على مبدعيتها في شتى المجالات الثقافية الأدبية والفكرية عبر أدبائها ومفكراتها الشموع المضيئة، أصحاب العطاء المستمر النابع من الذات الذي يضمه الكتاب. هكذا الكتاب نقطة ارتكاز بالغة الأهمية للفهم والتطور والانتقال إلى مستويات حياة أفضل وتحقيق التواصل بين الشعوب. فهو نافذة حوار لم يتوقف ونشراً للنور وإثراءً للعقل والوجدان، وتوطيد عرى التوحد الفكرى داخل الأمة الواحدة والتعاون المعرفى بين الأمم والشعوب⁽¹⁾.

الكتاب والتواصل مع الآخر:

منذ أن دبت الحياة على سطح هذا الكوكب والإنسان مشغول بكيفية التواصل مع الآخر، وعودة الإنسان البدائي الذي أعمل عقله وصنع لنفسه طرقاً للحوار مع الآخر بداية من إصدار أصوات، ليست لها ماهية وترديدها بينه وبين ذويه، إلى الرسم على جدران الكهوف والحفر على

الصخور، والنقش على الرقاع والجلود. وأخذت هذه الكيفيات تتطور وتتقدم مع مرور الأزمان إلى لغات عدة تتداول بين البشر. فمن الرسم على جدران الكهوف إلى علوم وفنون بصرية أصبحت من فنون الحياة تدرس وتفرد لها أرقى القاعات حول العالم، ليستمتع بها الراغبون في التعرف عليها من ذوي الذائقة المهتمة بالفن المرئي والمشاهد. ومن النقش على الرقاع والجلود إلى الحرف تجمع بطريقة دفتي كتاب، أو تتناقل بوسائل تكنولوجية حديثة عبر فضاءات العالم ليستقي منها القراء الباحثون في شتي المعارف زاهم دون بذل جهد أو مشقة.

هذه المقدمة تعطينا الدليل على أن الحضارات لم تقم إلا بإبداعات الشعوب، وأن العلم والتنوير لم ينتجا إلا من خلال التدبر وإعمال العقل فقد قيل: (العقل سلطان وله جنود، فرأس جنوده التجربة، ثم التمييز، ثم الفكر، ثم الحظ، ثم سرور الروح، إذ لا ثبات للجسم إلا بالروح، والروح سراج.. ونوره العقل، فبالتحاور بين العقول والمناقشة الإيجابية على اختلاف تنوعاتها تصبو جميعاً في النهاية إلى ما ينفع العالم أجمع⁽²⁾).

التواصل مفهومه ومعناه:

التواصل يقابله المصطلح الاجنبي continuity وهو يعني فيما يعني الاستمرارية ويتضمن مفهوماً آخر يتلامس معه وهو مفهوم الاتصال communication... والشئ ذاته بالنسبة لمصطلح اللاتواصل discontinuity والذي يعني الانقطاع والانفصال معاً⁽³⁾.

لقد جاء في لسان العرب ما يلي⁽⁴⁾:

«وَصَلَ: وصلْتُ الشَّيْءَ وصلّاً وصلّة، والوصلُ ضدُّ الهُجرانِ، الوَصْلُ خلافُ الفَصْلِ، وَصَلَ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ يَصِلُهُ وصلّاً وصلّة... وَنَجَدُ كَذَلِكَ بَلَغَ الشَّيْءُ بُلُوغاً وَبَلَاغاً وَصَلَ وانتهى وأبلغه إبلاغاً وَبَلَغَ تَبْلِيغاً وَيُبْلِغُ بالشَّيْءِ أَي وَصَلَ إِلَيْ مُرَادِهِ وَبَلَغَ مَبْلَغٌ فُلَانٌ وَمَبْلَغُهُ وَالبَلَاغُ مَا بَلَغَكَ. وقد جاء في القرآن الكريم: «هذا بلاغ للناس ولينذروا به» والبلوغ وقت الكتاب على الانسان والتكليف إذ بلغ أجلهن أي قاربته وبلغ النبت أي انتهى»⁽⁵⁾.

إن الرغبة في التواصل هي فعل يتأسس أولاً وقبل كل شيء على الفهم والإحساس بالآخر في إطار تصوري موضوعي للعلاقات البشرية لا يكتفي بالتركيز على البعد الاقتصادي الاجتماعي بل يتعدى ذلك نحو الكشف عما في العلاقات من معني وجود ونمط حياة بالمعني العميق والكوني للكلمة، ان التواصل وإن كان ينطلق من استراتيجية تحقيق الآنية والتأثير في الغير إلا أنه يهدف في العمق الى تكوين فضاء عمومي يكون بمثابة مسطح تنبني فوقه العلاقات القائمة على الاختلاف والحوار وسيادة روح الديمقراطية والتسامح.

التواصل الثقافي:

المراد بالتواصل الثقافي تبادل الثقافات الرئيسية أو فروعها وأنساقها، والاتصال ببعضها البعض تحاوراً وتعارفاً وتلاقحاً. وقد يكون التواصل تواصلاً أفقياً يتم بين ثقافات مترامنة أو بين اقاليم ذات ثقافة معينة، وتواصلاً رأسياً يتم بين الأجيال المتعاقبة لثقافة ما، أو بين فئاتها أو طبقاتها المترابطة اجتماعياً. وللتواصل الثقافي بالمعنى الأنف الذكر أهمية كبيرة سواء بالنسبة للثقافة أو

لأهلها. إذ يعزز التواصل الثقافي نمو الثقافة وتطورها وتجديدها من خلال تبادل الأفكار وتشجيع الإبداع وخاصة التواصل الثقافي الرأسي الذي يؤمن التراكم أو تواصل البناء الثقافي ويتيح تأصيل ما هو جديد ومبتكر تأكيداً للتناسق الثقافي. ومن خلال النمو والتجديد والتأصيل تتمكن الثقافة من مقاومة عوامل الفناء والزوال وتنامي قدرتها على البقاء والاستمرار من خلال احتفاظها بالقدرة على الإيفاء باحتياجات أهلها. ويعود التواصل الثقافي على المجتمع بفوائد عدة يمكن أن نشير منها إلى أن التواصل الثقافي يعزز المشترك الثقافي بين الأطراف المشاركة، وهوماً يساهم في تعزيز تماسك المجتمع ووحدته وتقارب المجتمعات المتقاربة ثقافياً وتعايشها. كذلك يعزز البعد أو المحتوى التواصل في الثقافات المعنية. وكلما كانت الثقافة ذات طبيعة تواصلية كلما شجعت أهلها على التواصل مع بعضهم البعض في الجوانب غير الثقافية أيضاً فيتعزز بذلك التواصل العام (التبادل الاقتصادي والتجاري والسياحي والاجتماعي...الخ) على نحو تتعاظم معه استفادة المجتمع، إذا ما قدر للتواصل الثقافي أن يكون كافياً لإحداث تغيير ثقافي⁽⁶⁾.

الثقافة والتعدد الثقافي:

يقول الدكتور عبدالمجيد عابدين عن الثقافة: فالثقافة مرهونة بالعصر، فكلما انتقلنا إلى عصر جديد، تطلبنا نوعاً جديداً من الثقافة يتناسب مع العلم الجديد الذي يظهر في ذلك العصر، يضيفه المثقف إلى معلوماته السابقة، فيربط بذلك بين الماضي والحاضر ويجمع بين معرفة أمته وبيئته، وبين معارف الأمم الأخرى وبيئاتها⁽⁷⁾.

أما التعدد والتنوع الثقافي فيرمز إلى مفهوم ظهر مؤخراً وما زال في طور التشكل والتكون. ويستنتج من الأدبيات ذات الصلة إن هذا المفهوم، بشكل عام، يتمحور حول التأكيد على إيجابية التنوع الثقافي وأهمية استمراره وعلى حق مختلف (أنواع) الثقافات في حفظ كيائها واحترام أوجه اختلافها وتميزها وحماية صناعاتها (الثقافية) وضرورة تقنين هذا الحق دولياً. ومن الواضح أنه مع إن هذا المفهوم ينبني على، تقريباً، ذات المدلول اللغوي لعبارة التنوع الثقافي المشار إليه آنفاً إلا أنه يتجاوز الطابع الوصفي لذلك المدلول، والذي يكاد يكون محل إجماع لكونه يعكس واقعاً قائماً، ويضفي عليه بعداً تقييمياً وتقنياً يثير خلافاً (نظرياً) ما يصطدم بالواقع الذي شهد ويشهد محاولات وسياسات عملية استهدفت إضعاف أو إقصاء أو محو ثقافات معينة⁽⁸⁾. والتعدد والتنوع الثقافي سنه كونية وضرورة اجتماعية وتاريخية وضمان للنهوض الإنساني ولارتقاء الحياة. فإذا سلمنا بوجود التعددية وبكونها (الطور الأرقى في سلم تقدم الإنسان). فلا بد من التسليم بوجود اختلافات وتناقضات وتباينات في الآراء والمعتقدات والمصالح والمرجعيات الإيديولوجية. فقد أصبح الإقرار بالتنوع الثقافي وحمايته قانوناً دولياً حيث جاء في المادة الأولى من إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي أن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليها وإن من حق كل شعب ومن واجبه أن ينمي ثقافته، وإن جميع الثقافات تشكل، بما فيها من تنوع خصب وتأثير متبادل، جزءاً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً. والإنسان مدني بطبعه لذلك لا بد له بالالتقاء بالثقافات الأخرى والاحتكاك معها فيؤثر ويتأثر بثقافة الآخر مع المحافظة على خصوصيته.

لقد كانت مصر أول دولة في العالم القديم عرفت مبادئ الكتابة وابتدعت الحروف والعلامات الهيروغليفية، وكان المصريون القدماء حريصون على تدوين وتسجيل تاريخهم والأحداث التي صنعوها وعاشوها، وبهذه الخطوة الحضارية العظيمة انتقلت مصر من عصور ما قبل التاريخ وأصبحت أول دولة في العالم لها تاريخ مكتوب⁽⁹⁾.

التواصل الثقافي بين شعبي وادي النيل:

الثقافة هي العمود الفقري بين شعبي وادي النيل فالعلاقات الأزلية بين السودان ومصر تركز على الثقافة التي تتغلغل في جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إذ أن الارتباط الأزلي بين الشعبين تغذية الثقافة التي تتغلغل في شتى مناحي الحياة⁽¹⁰⁾.

دور اللغة في التواصل الثقافي:

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستخدم لغة رمزية في التعامل والتعاون مع أبناء مجتمعه وبواسطتها ينقل خبراته وتراثه العقلي من جيل إلى جيل ومن هنا جاء تعريف الإنسان على أنه مخلوق ذو لغة رمزية، وهذه اللغة تعينه على تناول الموجودات من حوله بطريقة تختلف عن تناول الحيوان، ذلك أن الحيوان يتناول الأشياء بحواسه أما الإنسان فيتناولها بلغته وفكره فضلاً عن حواسه لذلك فإن تناول الإنسان يتصف بالإحاطة والشمول. واللغة هبة طبيعية خص الله تعالى بها الإنسان وميزه بها عن سائر ضروب الحيوان لتكون سبيلاً إلى عبادة الله وإلى معرفة خلقه. وهي شكل متميز من أشكال السلوك الإنساني إذ لم يعرف في تاريخ الإنسانية مجتمع بشري لم تكن له لغة خاصة تربط بين أبنائه يتبادلون بها المنافع، فاللغة أداة اجتماعية يستخدمها المجتمع ليرمز بها لعناصر معيشتة وطرق سلوكه وهي أكثر طرق الاتصال الإنساني استخداماً فهي رسالة متبادلة بين مرسل ومستقبل كلاهما من البشر. واللغة باعتبارها نظام رمزي تعد لوناً من ألوان الثقافة فالإنسان له قدره على استعمال الرمز، وتطور الثقافة مرتبط ارتباط وثيقاً بقدرة الإنسان على استخدام الرموز اللغوية. وكان للغة أيضاً فضل تطور الثقافة هذا التطور السريع الذي نلاحظه فتعمل اللغة على كسب المعرفة وتنمية التجارب والخبرات الإنسانية فهي أداة الاستمرار الثقافي عبر القرون ووسيلة أحياء تجارب الماضي ونقلها عبر الأجيال المتلاحقة وبذلك يستطيع الجيل اللاحق أن يبدأ من حيث انتهى الجيل السابق بدل أن يعيد اكتشاف الخبر وتعلمها من البداية.

مفهوم اللغة وتطورها:

اللغة كلام البشر المنطوق أو المكتوب، وهي نظام الاتصال الأكثر شيوعاً بين البشر؛ لأنها تتيح للناس التحدث بعضهم مع بعض والتعبير نطقاً أو كتابةً عن أفكارهم وآرائهم. وقد ورد في كتاب الله الكريم ما يفيد أن الله علم الإنسان البيان، قال عز وجل: {الرحمن* علم القرآن* خلق الإنسان* علمه البيان}⁽¹¹⁾. ويمكن استخدام كلمة لغة بصورة غير محددة لتدل على أي نظام للاتصال كإشارات المرور الضوئية أو الإشارات الدخانية للهند، إلا أن أصل الكلمة يبين معناها الأساسي.

اللغة إذن وسيلة أساسية من وسائل الاتصالات الاجتماعية وخاصة في التعبير عن الذات وفهم الآخرين ووسيلة مهمة من وسائل النمو العقلي والمعرفي والانفعالي وهي نظام من الرموز

المتفق عليها والتي تمثل المعاني المختلفة ويطلق عليها (Semantic) والتي تسير وفق قواعد معينة تسمى (grommet structure) ⁽¹²⁾.

دور اللغة في التواصل بين الشعبين:

اللغة بصفة عامة تلعب دوراً هاماً في صياغة عقلية الفرد والمجتمع - وهو ما ذهب إليه إدوارد ساير Edward Sapir من أن « اللغة تنظم تجربة المجتمع »، وهي التي تصوغ عالمه وواقعه الحقيقي، وأن « كل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم ». وذهب ساير وورف إلى أن اللغة « أساس تشكيل الأفكار، ودليل على النشاط الفكري للفرد »، وأن الأمر ليتجاوز ذلك إلى المجتمع ذاته، إذ نجدها الأساس الذي تبني عليه الهوية الاجتماعية علاوة على الهوية الفردية». وينطوي المقال أيضاً على إشارات ودلالات تُبرز ترابط شعوب تلك الأمم وثقافتها، فتكون بمثابة جامعاً تواصلياً يؤلف بين البشر، ويهبهم شعوراً بالانتماء إلى الإنسانية العالمية Humanitarian Global ⁽¹³⁾. ولأن اللغة هي مفتاح الثقافة ولتعارف الأمم وإدراكها لحضارات وثقافات وتفكير الشعوب. فقد نسجت اعتبارات الجغرافيا ومسارات التاريخ وحركة البشر علاقة خاصة بين مصر والسودان، على نحو ربما لم يتيسر لشعبين آخرين في المنطقة. إذ أن هناك علاقة قوية بين الشعبين، فهناك صلة النسب والمصاهرة والدم بينهما، ومن الملاحظ أن السواد الأعظم من أهالي أسوان ترجع جذورهم إلى السودان ⁽¹⁴⁾. ولا بد أن نؤكد على أن تلك الألفاظ المشتركة تعمل على توكيد التفاهم المرجو بين الشعوب لتكون بارقة أمل لمستقبل آمن، لا تُنتهك فيه كرامة الإنسان، ولا تُهدر حقوقه، ولا يطغى فيه القوي على الضعيف ⁽¹⁵⁾، وهو مكمّن قوة التواصل الثقافي بين الشعبين وتماسكه وعدم استجابته لكل ما من شأنه تعكير صفو العلاقات الأزلية بينهما.

وجه آخر من أوجه التواصل الثقافي:

وفي وجه آخر من أوجه التواصل الثقافي والاعتراف بحق من شحذ فكره وبذل جهده ووقته للكتابة عن السودان، أقام مجمع اللغة العربية بالخرطوم منتدى عن «الكتاب المصريين الذين كتبوا عن الأدباء السودانيين» ترأسه بروفيسور علي أحمد بابكر رئيس المجمع بحضور المستشار الثقافي لسفارة جمهورية مصر العربية الأستاذ أسامة جابر الذي بدأ حديثه بالقول إن العلاقة بين مصر والسودان علاقة تاريخية، فكلاهما له تاريخ واحد وتربط بينهما مصالح مشتركة، وتمني السفير أن تعمق جذور العلاقة الأدبية بين الكتاب المصريين والسودانيين بصورة أكبر. بروفيسور عبد الله برجمة تحدث عن تاريخ مصر والسودان بأنهما شركاء في وادي النيل وذكر بأنه أيام دراسة في مصر قد اتحد كثير من السياسيين السودانيين والمصريين مع بعضهم في كثير من المواقف أثناء الاستقلال، وأن كثيراً من الطلاب السودانيين إبان دراستهم في مصر كانوا من المداومين على حضور ندوة العقاد التي كانت تعقد كل جمعة.

تحدث بروفيسور حسن بشير الصديق عن تجربة التداخل الإبداعي ودراسته بين الأدباء السودانيين والمصريين، وذكر أن الكثير من الأدباء المصريين منهم عباس محمود العقاد، عبد المجيد عابدين، أحمد الحوفي، إحسان عباس، مصطفى هدارة، عبدو بدوي، طه حسين،

ألفوا الكثير من الكتب التي تتحدث عن السودان وأدبه منها تيارات الشعر المعاصر في السودان 1972م، لمصطفى هدارة. وكتاب الشعر في السودان لعبدو بدوي 1981م، ومن مؤلفات غير السودانين كتاب حليم اليازجي «السودان والحركة الأدبية» وذكر أن الأستاذين إبراهيم ناجي ومظهر سعيد أشادا بشعر التجاني يوسف بشير وتقديمه في نادي القصة بالقاهرة، وفيه يقول إبراهيم ناجي: إذا كانت انجلترا تعد شكسبير من مفاخرها، فإن عبقرية التجاني فخر للسودان. وأضاف حسن أن علي الجارم قد أثني على شعر احمد محمد صالح وحديثه عن العروبة.

بروفيسور إبراهيم الحارदلو ابتدر حديثه بالقول إن الثقافة والعلم أقوى رباط بالنسبة للإنسان، وهذا ما بينته في كتاب «الرباط الثقافي بين مصر والسودان» وأضاف أن العقاد كان محباً للسودان والسودانيين، وقد أكد ذلك بزيارته للسودان والتي كانت مؤثرة جداً على الشعب السوداني. واصل الحارदلو القول: بأننا استفدنا كثيراً من الأساتذة المصريين وتأثرنا بهم، ذاكراً أن نقد هدارة لعبد الله الطيب يعد نوعاً من المنافسة. بدوره أكد الدكتور عبد اللطيف سعيد أن العقاد تحدث عن الدوبييت السوداني، وذكر أن مصر فتحت استوديوهاتها للفنانين السودانيين فكان دورها الكبير في توثيق أغاني الحقيبة، كما وقد زارت أم كلثوم السودان عام 1968م، وغنت للشاعر الهادي آدم.

الدكتور عبد الله حمدنا الله ذكر أن الأدباء المصريين كتبوا عن الأدباء السودانيين في مواضيع كثيرة ومتنوعة في الشعر-القصة-الرواية-الأدب الشعبي، وأن النقاد السودانيين عيال النقاد المصريين باعتبار أن ما يكتبه النقاد السودانيون يسير على النهج المصري، معبراً الدكتور عبد المجيد عابدين أكثر ناقد مصري أصل للنقد والأدب السوداني ومن ثم يعد عابدين مؤصل الدراسات الأدبية في السودان. ونوه إلى وجود كثير من التقريظ الواسع في كتابات الأدباء المصريين عن الأدباء السودانيين لحساسية السودانيين، ورأي حمدنا الله إن تلك الكتابات تحتاج إلى رؤية ناقدة بعيداً عن الحساسية لتُرى بوضعها الصحيح. وقد تخللت الندوة العديد من المداخلات التي أثرت النقاش حول كتابات الأدباء المصريين عن الكتاب السودانيين ما بين موافق ومعارض مما فتح الباب للدراسة والنقد في ذلك الاتجاه⁽¹⁶⁾.

نماذج التواصل:

يعد الدكتور عبدالمجيد عابدين واحداً من رموز نشر ثقافة التواصل الثقافي بين الشعبين في الفكر والأدب مُنذُ أن عُيِّن أستاذاً مساعداً بجامعة القاهرة فرع الخرطوم (جامعة النيلين حالياً) التي تُعد هي الأخرى صرحاً شامخاً من صُروح الإخوة الصديقة بين شعبي وادي النيل حيث ظهر اهتمام الدكتور عبدالمجيد عابدين بالسودان وأهله وثقافتهم قبل مجيئه للسودان فجادت قريحته بمؤلفات أثرت المكتبة السودانية علماً وفكراً ثاقباً وثقافة نيرة، فكتب عن شاعر الجمال المهرّف الحس التجاني يوسف بشير كتاباً بعنوان: التجاني شاعر الجمال ظهرت الطبعة الأولى منه 1951م، وكتاباً آخر عن تاريخ الثقافة في السودان، طبعته الأولى 1953م، وكتاب دراسات في تاريخ النيل

1961م، وكتاب من أصول اللهجات العربية في السودان، 1966م، وكتاب من الأدب الشعبي السوداني 1967م، وتوسع في تأليفه متجاوزاً حُدود السودان مؤلفاً كتاب: صور من وحدة الفكر العربي في أفريقيا 1967م⁽¹⁷⁾. وإذا كان هذا إنتاج عالم مصري واحد عن السودان منذ بداية الخمسينات من القرن العشرين، فهو دليل على أن الشأن الثقافي السوداني كان حاضراً في الساحة الثقافية في مصر وإن قل. فالعبرة ليست «بالكم وإمّا بالكيف». فكم يا ترى من الطلاب في الجامعات السودانية والمكتبات العامة والخاصة ومكتبات الجامعات والمنازل ومن درس هذه الكتب أو أطلع عليها واقتناها في بلد ينضج حباً للثقافة والمثقفين. ومن النماذج الدكتور «محمد محي الدين عوض» و«دكتور ياسين محمد» في مؤلفيه قانون العمل المصري السوداني والتأمينات الاجتماعية في السودان واللذان عملاً في جامعة القاهرة فرع الخرطوم. و«إبراهيم باشا فوزي» في مؤلفه السودان بين يدي غوردون وكتشنر.

أمثلة التواصل:

يعتبر الدكتور يونان لبيب رزق أمودجاً يحتذى للتواصل بين مصر والسودان. فقد درس يونان الانسان، في كلية الآداب بجامعة عين شمس، التي اشتهرت برسوخها وتميزها، وحصل منها على درجتي الماجستير والدكتوراة عن تاريخ السودان المعاصر، الذي رحل إليه مقيماً فيه، باحثاً عن وثائق هذا البلد الذي ارتبط تاريخه بمصر، وارتبط تاريخ مصر به، فأصدر عن السودان ثلاثة كتب⁽¹⁸⁾.

عباس محمود العقاد:

من الكتب التي لعبت دوراً مشهوداً في نشر ثقافة التواصل الحضاري بين شعبي وادي النيل ما خطه يرّاع فريد زمانه «عباس محمود العقاد» من مؤلفات سادت الوسط الثقافي السوداني ولم تزل ولا يكاد يخلو منها بيت سوداني، وأشهرها على الإطلاق (العبقريات) التي خاطبت روح التدين في القارئ السوداني وألهبت فيه الإحساس المعرفي العميق بالنبي وخلفائه وعظماء الإسلام كعبقرية محمد وعبقرية الصديق وعمر وعثمان وعبقرية خالد بن الوليد. وعمرو بن العاص ومؤلفة المشهور الصديقة بنت الصديق ورواية سارة وغيرها من الكتب. وقد تجلّى حبّ السودانيّين للعقاد وتقديرهم لمكانته الأدبية الرفيعة عند زيارته للسودان في يوليو 1942م، فوصفت أيامه التي أمضاها في السودان بأنها كلها كانت أعياد ثقافة وأدب حيث امتلأ وقت الجميع إما بالحديث عنه أو السعي إليه ولم تشهد دار الثقافة منذ إنشائها حشداً من المثقفين والمفكرين مثل الحشد الذي تجمع ليستمع للعقاد وهو يحاضر عن الثقافة⁽¹⁹⁾.

ما يعضد عمق التواصل بين الشعبين ورسوخ جذوره أن هذا الحب لم يتأثر يوماً بتقاطعات السياسة وصراع المصالح، بل أنه كلما كاد المشهد السياسي أن يبلغ مرحلة التآزم استنجد الشعبان في كلا البلدين بمخزونهما الضخم من العلاقات الثقافية لتذويب جليد العلاقات السياسية.

طه حسين:

من منا لم تجد كُتب عميد الأدب العربي إليه طريقاً. (فالأيام) لطه حسين صار منهجاً دراسياً في المدارس السودانية. وكذلك (حديث الأربعاء) و(على هامش السيرة) و(شروح سقط الزند) و(مع

المتنبى) و(الوعد الحق) و(دعاء الكروان) و(المعذبون في الأرض) و(الفتنّة الكبرى عثمان) و(الفتنّة الكبرى على وبنوه) و(حديث المساء) وحافظ وشوقي وفي الأدب الجاهلي ومع أبي العلاء المعري في سجنه⁽²⁰⁾. وبالإجمال نقول جوازاً ما من كتاب ألفه طه حسين إلا وقرأ في السودان، فصارت كتب طه حسين مكتبات تمشي بين الناس ثقافة وعِلماً، فناً وأدباً معبرة عن عمق التواصل الثقافي بين الشعبين.

الحاج محمد المدبولي:

أجرى إبراهيم محمد صالح حواراً مع الحاج محمد المدبولي في القاهرة ابتدره بالسؤال عن رحلة المدبولي الطويلة مع عالم الكتب والثقافة، بالقول: تري من هم أكثر الشعوب العربية حُباً للكتاب؟ فرد الحاج مدبولي بأنه في تقديره السودانيون واليمنيين وكذلك الفلسطينيين هم الأكثر حُباً للقراءة والثقافة والفكر الإنساني. وبسؤاله عن تجاربه في إقامة معارض للكتاب في الخرطوم، وتجربته مع القارئ السوداني، رد مدبولي قائلاً: أقمت خمس معارض للكتاب في السودان، وسأغادر غداً السودان للمشاركة في معرض الكتاب المصري والمقام حالياً في الخرطوم، ومعارض في الخرطوم تتسم بالنجاح، والسودان هو البلد الوحيد الذي لا ترجع لي فيه كتب، وكمثال عدد الكتب التي أشارك بها في معارض الخرطوم يزيد أربعة أضعاف ما أشارك به في الدول الأخرى. وبسؤاله عن مشاريعه وأمنيته في الحياة الثقافية في السودان، أجاب: أتمنى أن يكون لمدبولي مكتبة في السودان، وأمل من الجهات المختصة أن تساعدني في ذلك، وكمثال ليت يخففوا علينا في الجمارك حتى يتسنى للمواطن البسيط أن يجد ما يريد من الكتب وأقل سعر، كما أتمنى أن يكون لي تعاون بين المثقفين والكتاب السودانين وأشيد هنا بمركز الدراسات السودانية بالقاهرة لدوره المرموق، وأتمنى أن أنشر للدكتور منصور خالد. وعن الشيء الذي أثار انتباهه في القارئ السوداني كان رده: القارئ السوداني معروف بحبه للقراءة والاطلاع، وفي أحد معارضي جاء إلى شخص سوداني واشترى كتاباً كثيرة، وأخبرني من كان معه أن هذا الرجل قد باع ذهب زوجته ليشتري الكتب، وختم مدبولي حديثه بقوله: السودان هو البلد الوحيد الذي لا ترجع منه كتبتي⁽²¹⁾.

مصريين أسهموا في نشر ثقافة التواصل:

— عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية (1946م) - المرأة في القرآن - سارة (1938) - عبقرية المسيح (1953) - عبقرية محمد (1942) - شعراء مصر - ديوان عابر سبيل - رجال عرفتهم - عبقرية الصديق - عبقرية خالد (1945) - ساعات بين الكتب - يسألونك (1946) - اسلاميات (1989) - أفيون الشعوب (1956) - حياة قلم
— طه حسين: حديث الأربعاء (1922) - الأيام (1929) - على هامش السيرة (1933) شجرة البؤس (1943) - الفتنة الكبرى (1951) - الحب الضائع (1942) - حافظ وشوقي (1933) - ما وراء النهر (1975) - مرآة الإسلام (1959) - مع المتنبي (1936) - دعاء الكروان (1934) - في الشعر الجاهلي (1926) - دعاء الكروان (1934) - المعذبون في الأرض (1950).
— مصطفى لطفي المنفلوطي: العبرات - النظرات - ماجدولين - في سبيل التاج - بول وفرجينى - الشاعر....

- نجيب محفوظ: كفاح طيبة- خان الخليلي-زقاق المدق-بين القصرين-السكرية-الصل
- والكلاب-بيت سيئ السمعة- السمان والخريف- دنيا الله- الجريمة-حكايات حارتنا-
خمارة القط الأسود....
- يوسف السمان: يا أمة ضحكت- اثنا عشر رجلاً- أرض النفاق- ست نساء وستة
رجال- نادبة الجزء الأول- نادبة الجزء الثاني- العمر لحظه....
- صبحي عبد المنعم: تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح الإسلامي حتى عهد
الأيوبيين....
- عبد الرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال....
- يونان لبيب رزق: الأصول التاريخية ومسألة طابا- مشكلة جنوب السودان- قضية
وحدة وادي النيل بين المعاهدة وتغير الواقع الاستعماري....
- بنت الشاطئ (عائشة عبدالرحمن): التفسير البياني للقرآن الكريم-القرآن وقضايا الإنسان....
- محمد محمود السروجي: دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث...الخ
- عبد العظيم محمد رمضان: موسوعة تاريخ مصر عبر العصور....
- محمد عوض محمد: السودان الشمالي سكانه وقبائله-1591م.
- الشاطر بصلي عبد الجليل (معالم تاريخ السودان وادي النيل-9691م)، شوقي عطا الله
الجمال: تاريخ السودان وادي النيل-9691م)، مصطفى محمد مسعد (الإسلام والنوبة في
العصور الوسطى-6691م).

كتب الأطفال⁽²²⁾:

- وجد في السودان قبل الأربعينات من القرن العشرين من يعتمد على الكتب المصرية
في مجال الطفولة كافتناء كتب المعارف الأدبية والفنية والعلمية واللغوية والمعمجية والتقنية،
والاعتماد على المقررات الدراسية والمنهجية المصرية، مع تمثل قصص كامل كيلاني- عطية الإبراشي
- سعيد العريان، كنماذج قصصية للأطفال السودانيين، وهذه أمثلة لبعض الكتب التي ساهمت
مساهمة فاعلة في نشر ثقافة التواصل بين الشعبين، فقد كانت الأوسع انتشاراً والأكثر تأثيراً بين
فئات الشعب السودان بمختلف فئاته العمرية:
- عبد الحميد جودة السحار: فتح مكة، قدرة الله - بنو اسماعيل - أهل بيت النبي-
المسيح عيسى بن مريم...
 - كامل كيلاني: لؤلؤة الصباح- شهرزاد وشهريار-علي بابا- شمشون الجبار- الملك عجيب-
الأمير مشمش- التاجر مرمز....
 - محمد عطية الأبرشي: الراعي الشجاع- السلطان المسحور- البنات والأسد-أطفال الغابة-
أميرة القصر الذهبي...
 - أحمد بهجت: الملك طالوت والنهر- أصحاب الجنة... حمدي هاشم حسنين: الأشقاء
الثلاثة- المغامرة العجيبة...؛ ثريا عبدالبديع: أميرة في بلاد الأقزام...؛ عادل الغضبان:

المغامر الجريء...؛ رشاد كيلاني: الذئب والعنزات السبع...؛ يعقوب الشارون: الشاطر محظوظ... (23).

— حسن عثمان: الجزيرة المهجورة...؛ شوقي حجاب: دق دق وفوفو...؛ منصور علي: حكايات جحا والحمار...؛ عادل الغضبان: الببل....

قالوا عن التواصل:

في تحقيق نشر بصحيفة الخليج الالكترونية، تحدث بعض المثقفين المصريين عن معرفتهم بالثقافة السودانية، بقولهم⁽²⁴⁾:

الكاتب والروائي سعد القرش: أنه قبل حصوله على جائزة الطيب صالح، لم تكن لديه معرفة متكاملة بالثقافة السودانية، لكن عندي معرفة بأشخاص مثل الطيب صالح، وحيدر إبراهيم، ومن الروائيين الجدد رغم انه في الخمسين من عمره «أمير تاج السر»، بينما لا يعرف أي شيء آخر عن السودان.

يواصل الحديث: ذهبت إلى السودان وأستطيع القول أنهم يشعرون بأننا نتجاهلهم، وهذه حقيقة، فالجنوب هنا في مصر مهمش، أما السودان فهو جنوب الجنوب، هناك نوع من الغضب، ولا أقول المرارة، من تجاهل الثقافة المصرية والمثقفين المصريين للثقافة والأدب السوداني، والسودانيون يؤكدون دوماً في نوع من الصمت الجميل أن الإبداع السوداني ليس هو الطيب صالح فقط، وأن هناك أجيالاً أخرى جاءت بعده، في الشعر والقصة والرواية والفكر، ورغم ذلك لم يَمروا ببوابة القاهرة، أو لعلها موصدة دونهم، وأتصور انه آن الأوان أن تعود مصر لتوجهها الإفريقي. ويتمنى أن يكون هناك تفاعلاً بين الثقافة المصرية والسودانية، إما بنشر إبداعاتهم أو بالزيارات، ويكون هناك تمثيلاً حقيقياً للمشهد الأدبي في السودان، وليس لموظفين ينتقلون بين الخرطوم والقاهرة. ويشير إلى أنه حدث نوع من القطيعة مع العرب منذ أيام «كامب ديفيد»، نجحنا في التغلب عليها بدوافع حقيقية أو استعراضية مع بلدان الخليج والشام والمغرب، إلا السودان والصومال وموريتانيا، فقد ظل هذا البلد على الهامش البعيد، وبالرغم من أن روحنا في يد السودان، فإننا تجاهلنا الجانب الثقافي، مع جوانب أخرى تم تجاهلها في السنوات الأخيرة⁽²⁵⁾.

الكاتبة والروائية أمينة زيدان: حجم معلوماتي عن الثقافة السودانية محدود، فأنا أعترف إلى الثقافة السودانية من خارج مصر حين نخرج إلى أي برنامج دولي في أمريكا أو الصين، تعرفت إلى كتاب سودانيين حقيقيين ولهم تجارب قوية جداً ومثقفين، لكنهم غير معروفين في مصر، لكن بالنسبة إلى الكتب قرأت في مطلع حياتي أعمالاً كثيرة لكتاب سودانيين، لأنني كنت أعد مصر والسودان بلداً واحداً، وأتصور أننا في الفترة المقبلة في حاجة إلى اندماج بين الواقع الثقافي في مصر والسودان، فليسوا هم فقط من يحتاجون إلينا، وإنما نحن أيضاً في حاجة إليهم، ويجب أن ندرك أهمية التواصل على مستوى الثقافة لبلد شقيق وجار تربطنا معه لغة وحضارة واحدة ويربطنا نيل وعادات وتقاليده وحتى التراث الفرعوني والأدب المصري القديم كان متفاعلاً مع السودان باعتباره كان جزءاً من الواقع، نحن وطن واحد، ويجب أن يكون هناك فهم أكبر لهذا.

حجم التواصل الثقافي بين مصر والسودان غير كاف، وغير مرض للطرفين سواء للمصريين أو السودانيين وهذا لسبب بسيط وواضح جداً أننا أصبحنا نتجه للأماكن الثقافية القادرة على الدفع، فتجد دوماً معينة قبله للمثقفين تمنح الجوائز وتدفع مقابلها جيداً، وبها العديد من المؤتمرات والملتقيات، لكن بالنسبة لنا السودان فقير، ولكن في السودان كتاب عالميون معروفون في الخارج أكثر مما نعرفهم في مصر، بعضهم عاش في مصر، وبعضهم عاش في الخارج، وكل الناس يعرفون إصداراتهم إلا نحن. وتقترب أمينة زيدان ضرورة تفعيل الأنشطة الثقافية والتبادل الثقافي بوجه خاص بين مصر والسودان⁽²⁶⁾. واقع الأمر يشير إلى أن السنوات الأخيرة شهدت تزايد مؤشرات اهتمام الكتاب والأدباء العرب بالثقافة السودانية، فقد أصدر قبل سنوات قليلة، الناقد المصري فؤاد مرسى كتاباً عن القصة القصيرة في السودان، استطاع فيه جمع نماذج لأجيال مختلفة من كتاب السرد القصصي. وقد أسهم هذا الكتاب، بلا شك بالتعريف بالقصة السودانية، فيجب علينا ونحن نتداول في إسهام الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين الشعبين، ألا نغفل أن ثمة مقدرة ومعتبرة من أشقائنا المصريين قد ألفوا كُتُباً تركت انطباعاتاً جميلة في نفوس كل من قرأها من السودانيين، فصار لها دوراً محورياً في تشكيل ثقافة الغالبية من السودانيين منذ أقدم الأزمان وحتى الوقت الحاضر إذ لا يزال الكتاب المصري يحتل مساحة واسعة في الشأن الثقافي في السودان⁽²⁷⁾.

الأدب السوداني:

توجهت روز اليوسف إلى «عمر سيد» صاحب مكتبة «عمر بوك ستورز» الذي أوضح أن الكتب السودانية الأدبية فقط هي الأكثر شيوعاً، أما الكتب الأخرى فتكون ذات عناوين عامة لا تعبر عن توجه محدد، والأكثر إقبالاً من الكتب الأدبية هي الرواية، وبالأخص «موسم الهجرة إلى الشمال» للطبيب صالح وأعماله كلها عموماً، أيضاً الدواوين الشعرية للشاعر السوداني سيد أحمد الحردلو، كذلك الكتب التاريخية عن السودان، وما بها من صور تكون محبة للمصريين، فيما عدا ذلك من الكتب الأخرى فإن السودانيين فقط هم المهتمون بها، وأكثر شريحة مهتمة بالكتب السودانية هم «الشباب». وفيما يخص الترويج أوضح أن المصريين لديهم مشكلة، نابعة من أنهم لا يرون سوي أن الأدب السوداني هو «الطيب صالح»، علي مستوي آخر للمشكلة لكنها بنسبة ضئيلة، مشكلة اللهجة السودانية التي يُكتب بها العمل أحياناً ولا يفهمها المصريون، أيضاً اهتمام المصريين بدار النشر الصادر عنها الكتاب، فلو أن هذا الكاتب السوداني أياً ما كان اسمه أو المجال الذي يكتب فيه طالما كتابة صادر عن دار نشر معروفة محلياً أو عربياً أو عالمياً فهي ضمان لبيع الكتاب⁽²⁸⁾.

الناشر «محمد هاشم» صاحب «دار ميريت» الذي بدأ الاهتمام بالأدب السوداني مؤخراً، يتنبأ لعدد من الكتاب السودانيين بالشهرة هنا في مصر مثل الروائيين حمور زيادة، خالد عويس وآخرين، عن بعض الكتب التي أنتجتها دار ميريت يقول هاشم: «لدي مجموعة قصصية - حوار الظلال» لعثمان أحمد عثمان وقد أرجع هاشم أسباب الفجوة الثقافية بين مصر والسودان، إلى

الأنظمة السياسية، لكن علي مستوي الشعوب لا يوجد علي الإطلاق أية مشكلة أو حساسية بين المصري والسوداني، واختتم حديثه قائلاً: إنما ومهنتي الصدق السودانيون هم أقرب الناس لنا وهم أشقاء بالفعل وهي حقيقة تاريخية معروفة⁽²⁹⁾.

الكتاب السوداني:

يقول أمجد محمد سعيد: إن الكتاب السوداني والمؤلف السوداني يطاول في قامته أطول القامات الإبداعية في الوطن العربي والعالم الاسلامي، وله من خصوصية الأرضية الإبداعية ما يُحقّق غداً واضحاً في جميع فنون الإنتاج الثقافي والفكري. ولكن ما زال يحتاج إلى عملية ثورية لإيصال هذا النتاج الفكري الثرّ إلى المتلقين في كل مكان داخلياً وخارجياً⁽³⁰⁾.

أخذاً في الاعتبار أن قطاعاً كبيراً من الشعب المصري لم يهتم بالثقافة السودانية وجب علينا ونحن نبحت في إسهام الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين الشعبين، ألا نغفل أن ثلّة مُقدّرة ومعتبرة من أشقائنا المصريين، ألفوا كتباً لعبت دوراً أساسياً في تشكيل ثقافة الغالبية من السودانيين منذ أقدم الأزمان وهي ثقافة تحسّدهم عليها كثير من الشعوب الأخرى. حتى «اشتهر» السوداني من بين كثير من الشعوب أنه الأكثر استعداداً على تلقي ثقافات الآخرين والتميّز بين الجيد والردّيء منها من غير أن يوصد بابه أمام ثقافة بعينها، تاركاً الباب مفتوحاً لكل ثقافة أن تُقدّم نفسها وتُثبت وجودها من خلال الكتب المطبوعة المطروحة للعرض. حيث ثبت بمرور الأيام أن الكتاب المصري هو الأكثر حظاً ووفرة ومقدرة على الاستمرار من بين جميع الكتب. من ثم فإن المكانة التي بلغها الكتاب المصري ليس لأنه ارتبط فقط بالجوار الجغرافي ولكن بالارتباط التاريخي والوجداني الشعبين من جهة، ولأن الكتاب المصري أقرب إلى مزاج القارئ وذوقه وطبعه ولأنه استطاع أن يُعبر بوضوح عن كثير من الحاجات الثقافية التي يطلبها القارئ أو المتلقي السوداني، من جهة أخرى.

الكتاب السوداني في المكتبات المصرية:

من الملاحظات المهمة أن الكتب السودانية الموجودة بالمكتبات المصرية لا يمكن مقارنتها من حيث عددها بعدد أية كتب مصرية موجودة في بضعة رفوف مكتبة من المكتبات السودانية أو مكتبة منزلية صغيرة، ومن السهل حصر عددها ومعرفة عناوينها والمكتبات الموجودة بها. وأكثر هذه الكتب على قلفتها في التاريخ والعلاقات السياسية فمنها: الحركة المهدية وانعكاساتها على العلاقات المصرية السودانية، ولذلك فليس من الغرابة في شيء إن لم يجد المرء كتاباً سودانياً من بين قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في مصر. مما يعني أن الكتاب السوداني لم يجد القليل من الاهتمام الذي وجده وظل يجده الكتاب المصري في السودان. ورغم الشعور بالألم من هذا الوضع الغريب للكتاب السوداني في مصر والذي جعله غريباً في دياره وبين أهله على الدوام، إن هذا لم يغيّر من موقف السودانيين من الكتاب المصري ولم يؤثر على التواصل الثقافي بين الشعبين من خلال الكتاب المطبوع.

كتاب سودانيين:

الروائي العالمي الراحل «الطيب صالح» أول من حمل مشعل السرد السوداني، وجعله معروفاً في الأوساط العربية، حيث قام بتقديمه الى الكاتب الصحفي المصري «رجاء النقاش»، كما تمت ترجمة أعمال «الطيب» لما يفوق أربعين لغة، وقد خرج معظم كتاب السرد من معطف الطيب صالح وان لم يكونا صدى له، فقد تأثر به الشاعر «ابراهيم اسحق»، الذي سبق كتاب امريكا اللاتينية في الكتابة «بالواقعية السحرية والفتازيا»، وهناك «عيسى الحلو» و«عثمان الحوري» و«محمد مهدي بشري» و«مبارك الصادق» و«نبيل غالي». ثم يلي هذا الجيل «بشري الفاضل» و«أمير التاج»، الى جانب العديد من كتاب السرد الذين لا يمكن حصرهم والذين برعوا في كتابة القصة القصيرة. ويعود توارى الأدب السوداني وعدم ظهوره في الساحات العربية الى عدة أسباب منها ضيق مساحة انتشار المطبوعات السودانية، والمجموعات القصصية خاصة، والذي يعود الى عدة أسباب منها ضيق مساحة انتشار المطبوعات السودانية، والمجموعات القصصية خاصة، والذي يعود إلى أزمة النشر التي لازمت مسيرة الإبداع السوداني منذ خمسينات القرن العشرين.

في الحوار الذي أجري معه ذكر فيصل مصطفى إن السودانيين يعرفون أدق التفاصيل عن مصر، بينما لا يعلم المصريون شيئاً عن السودان، وهذا ما كافحت من أجله منذ مجيئي الى القاهرة أواخر عام 2005م، علماً بأن السودان يكتظ بالشعراء المحيدين في الخرطوم بينما ينتشر العديد منهم في بلاد المهجر⁽³¹⁾.

صور شاب سوداني علاقته بمصر في رواية حكى فيها ذكريات حياته في القاهرة مبينا ارتباطه بموطنه الأصلي السودان، جسدت الرواية روابط الثقافة والأدب بين الشعبين. سماها « الحب من طرف ثالث» وكانت بداية إصدارات الناشط «ياسين سليمان» الأدبية، مكث يسن خمس سنوات في القاهرة ينتقل بين شوارعها وإحيائها الشعبية وخاصة الأماكن التي يكثر فيها تواجد السودانيين مثل (عابدين - فيصل- الهرم- مصر الجديدة- ومدينة نصر، بجانب مقاهي وسط القاهرة). الرواية لم تفرق في فصولها العشرة بين القاهرة والخرطوم وتناولت أحداثها بين المدينتين وكأنهما في بلد واحد، كما أنها عكست واقع السودانيين في القاهرة وارتباطهم بها، جمع فيها الكاتب الشاب بين الأمثال والأشعار والأغاني المصرية والسودانية المتداولة في الشارع مؤكدة عمق التواصل الثقافي والأدبي بين الشعبين⁽³²⁾. ولعل هذه واحدة من روايات لم يكتبها آخرون عاشوا عيشة ياسين في القاهرة، ولو أنهم كتبوا لأثروا المكتبة المصرية بكثير من الروايات الأدبية السودانية التي تعكس قوة الرباط الوجداني الفطري بين الشعبين الشقيقين.

يقول بكرى الصائغ: في زيارتي الأخيرة للقاهرة قمت بزيارة لمكتبة «المديولي» أشهر مكتبة بالقاهرة، وهناك اقتنيت أربعة كُتب تاريخية عن السودان وكُتُبها مصريون.. اسم الكتاب الأول (مصر والسودان: الانفصال، الكاتب: محسن محمد).. والكتاب الثاني باسم (الصحافة السودانية تاريخ وتوثيق: 1899 - 1989، الكاتب: الدكتور عبدالفتاح عبداللطيف).. والكتاب الثالث هو (العلاقات المصرية السودانية في ظل الاتفاق الثنائي، الكاتب الدكتور عبدالفتاح عبدالصمد)..

والكتاب الأخير هو (دراسات في تاريخ العلاقات المصرية السودانية 1954-1956، الكاتبة: الدكتورة نوال عبدالعزيز مهدي)⁽³³⁾.

الخاتمة:

من يطلع على إسهام الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الثقافي بين شعبي وادي النيل من خلال المعلومات التي وردت في ثنايا البحث يدرك أن الكتاب المطبوع في الفترة الزمنية موضوع البحث، تحول من مجرد كونه وعاء معرفيا حاملا في ثناياه ما كان يبحث عنه الشعبان ليتعرف كل منهما على الآخر عن قرب، إلى أقوى عامل من عوامل توثيق الصلات الثقافية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين شعبي الوادي، فعن طريقه اتسعت دائرة المعرفة وانتشرت وقويت العلاقات الأخوية وتوطدت.

النتائج:

- لعب الكتاب المطبوع أدواراً حاسمة في تقوية وأواصر العلاقة الأخوية بين الشعبين الشقيقين من خلال قنوات التواصل الثقافي.
- الكتاب المصري أقرب إلى مزاج القارئ وذوقه وطبعه لأنه استطاع أن يُعبر بوضوح عن كثير من الحاجات الثقافية التي يطلبها القارئ أو المتلقي السوداني.
- الكتب السودانية الموجودة بالمكتبات المصرية لا يمكن مقارنتها من حيث عددها بعدد أية كتب مصرية موجودة في بضعة رفوف مكتبة من المكتبات السودانية أو مكتبة منزلية صغيرة.
- رغم أن الكتاب السوداني لم يجد القليل من الاهتمام الذي وجده وظل يجده الكتاب المصري في السودان إلا إن هذا لم يغير من موقف السودانيين من الكتاب المصري ولم يؤثر على التواصل الثقافي بين الشعبين من خلال الكتاب المطبوع.
- يعتبر التواصل الثقافي الضامن الأقوى لاستمرار العلاقة الأخوية الأزلية بين شعبي البلدين وخاصة من خلال الكتاب المطبوع رغم اختلاف المواقف السياسية بين البلدين تجاه بعض القضايا الإقليمية والدولية.

الهوامش:

- (1) صحيفة الوطن السودانية: هل تعود الدولة إلى دعم الكتاب والثقافة والمؤلفين.
- (2) الدميري: أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى بن علي الشافعي (ت ٨٠٨هـ): حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، 1424هـ م، ص 320.
- (3) مجدي أحمد حسين: القاهرة، 5 فبراير 1997م
- (4) ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ م، ص 726؛ زهير الخويلدي، جمعية التربية العربية وحوار الثقافات . <http://www.atida.org/makal.php?id=196>
- (5) زهير الخويلدي: جمعية التربية العربية وحوار الثقافات.
- (6) هانس بيتو مارتين: فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية و الرفاهية. ترجمة د. عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم أ. د: رمزي زكي. سلسلة عالم المعرفة 28 أكتوبر 1988م.
- (7) عبد المجيد عابدين: دراسات سودانية، مجموعة مقالات في الأدب والتاريخ، جامعة الخرطوم. دار التأليف والترجمة والنشر، 1972م. ص 73.
- (8) عبد الملك منصور حسن المصعبي: إدارة التنوع الثقافي: من الحفاظ إلى التزكية، ورقة قدمت لندوة « التنوع الثقافي و الحداثة: حوار بين الأقاليم » نظمتها اليونسكو في باريس في 6-7/5/2004م.
- (9) هيئة الأوقاف المصرية: جمهورية مصر العربية | <http://hyatelawqaf-eg.org/sub%20pages/HistoryInfo.htm>
- (10) رباب طه عبد الرحمن. التاريخ 13:49:42 2011\1\9 <http://wadi.sudanradio.info/arabic/modules/news/print.php?story=2852>
- (11) سورة الرحمن: 1-4.
- (12) لينا عمر بن صديق: البرامج التربوية للأطفال المضطربين لغوياً من ذوي الاحتياجات الخاصة، بحث أدبي تحليلي، منتدى أطفال الخليج، قسم الدراسات والأبحاث، 2008م.
- (13) إدوارد ساير: اللغة مقدمة في دراسة الكلام، ترجمة المنصور عاشور. تونس: الدار العربية للكتاب، 1997 م، ص 155.
- (14) فليفل: السيد علي أحمد، باز، كرم الصاوي: العلاقات المصرية السودانية عبر العصور، 18-19 مايو 2009م، جامعة القاهرة. معهد البحوث والدراسات الإفريقية، ص 497.
- (15) أنور محمود زناقي: اللغة ودورها في التواصل الحضاري بين الشعوب، دورية كان التاريخية، سبتمبر 2011م/1432هـ ع 13، ص 74.
- (16) هيئة الأعمال الفكرية: السودان، الخرطوم. <http://www.fkria.org/news.php?action=show> 29%&newsid=138#myGallerypicture%283
- (17) عبد المجيد عابدين: دراسات سودانية-مجموعة مقالات في الأدب والتاريخ. جامعة الخرطوم. دار التأليف والترجمة والنشر. ط2، 1972م.

- (18) صحيفة المصري اليوم: يونان لبيب رزق.. مؤرخ الواقعية.. وديوان الحياة المعاصرة.
(19) <https://www.almasryalyoum.com/news/details/1888777>
- (20) حسن نجيلة: ملامح من المجتمع السوداني، الدار السودانية للكتب، 1972م.
(21) صحيفة ستوب <http://forum.stop55.com/69250.html> news.stop55.com
(22) صحيفة الصحافة <http://www.alsahafa>
- (23) جميل حمداوي: أدب الأطفال في السودان. <http://dargul.com/vb/showthread.php?t=59>
- (24) <http://www.noorsa.net>
- (25) <http://www.alkhaleej.ae/portal/850d9d033-c1a-4203-b5b3-a30d155eca7d.aspx>
- (26) صحيفة الرائد السودانية بتاريخ 2011/08/30.
- (27) شؤون ثقافية | إشعاع عربي متزايد للثقافة السودانية | <http://www.dw-world.de/dw/article/01493705400.htm>
- (28) شبكة الأخبار العربية | العلاقات التاريخية ما بين مصر والسودان | <http://www.anntv.tv/new/showsubject.aspx?id=22145>
- (29) تغريد الصبان: مجلة روز اليوسف. العدد - 1802 الثلاثاء 17- <http://www.rosaonline.net/Daily/News.asp?=112072>
- (30) تغريد الصبان: مجلة روز اليوسف المرجع السابق.
- (31) أمجد محمد سعيد. الثقافة العربية. تذكارات سودانية عن معارض الكتاب في الخرطوم ؟
<http://www.akharalyoumsnet/modules>
- (32) <http://www.anntv.tv/new/showsubject.aspx?id=22145> .
- (33) <http://www.as7apcool.com/vb/showthread.php?t=108943>. <http://www.rosaonline.net/Daily/News.asp?=115822>
- (34) بكري الصائغ :- المكتبة السودانية-المقالات - 22 يونيو 2011: الذكرى الـ 126 على وفاة أحمد المهدي .

المصادر والمراجع:

- (1) الديميري، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى بن علي الشافعي (ت ٨٠٨هـ): حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، 1424هـ.
- (2) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- (3) أنور محمود زناتي: اللغة ودورها في التواصل الحضاري بين الشعوب، دورية كان التاريخية، سبتمبر 2011م/1432هـ، ع13.
- (4) إدوارد ساير: اللغة مقدمة في دراسة الكلام، ترجمة المنصور عاشور . تونس: الدار العربية للكتاب، 1997م.
- (5) تغريد الصبان: مجلة روز اليوسف، العدد -17 1802 الثلاثاء-
- (6) حسن نجيله: ملامح من المجتمع السوداني: الدار السودانية للكتب، 1972م.
- (7) الطاهر مصطفى محمد صالح|المدن وثقافة التواصل في السودان (1820-1504م). ورقة قدمت في مؤتمر جامعة فلاديفيا الدولي في الأردن.
- (8) (عبد المجيد عابدين: دراسات سودانية، مجموعة مقالات في الأدب والتاريخ، جامعة الخرطوم. دار التأليف والترجمة والنشر، 1972م.
- (9) عبد الملك منصور حسن المصعبي: «إدارة التنوع الثقافي: من الحفاظ الى التزكية»، ندوة «التنوع الثقافي والحداثة: حوار بين الأقاليم. اليونسكو. باريس ، 6-7/5/2004.
- (10) فليفل، السيد علي أحمد، باز، كرم الصاوي: العلاقات المصرية السودانية عبر العصور، 18-19 مايو 2009م، جامعة القاهرة. معهد البحوث والدراسات الافريقية.
- (11) هانس بيتوماترين. فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية. ترجمة د.عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم ا.د، رمزي زكي. سلسلة عالم المعرفة 238|أكتوبر 1988.
- (12) المكتبة السودانية: المقالات _ بكرى الصائغ _ 22 يونيو 2011
- (13) صحيفة المصري اليوم: يونان لبيب رزق..مؤرخ الواقعية..وديان الحياة المعاصرة.
- (14) أمجد محمد سعيد. الثقافة العربية. تذكارات سودانية عن معارض الكتاب في الخرطوم؟
<http://www.akharalyoumsdnetmodules>
- (15) شبكة الأخبار العربية|العلاقات التاريخية ما بين مصر والسودان
<http://www.anntv.tv/new/showsubject.aspx?id=22145> .a

(16) جميل حمداوي: أدب الأطفال في السودان | <http://dargul.com/vb/showthread.php?t=59>

(17) جمهورية مصر العربية، هيئة الأوقاف المصرية

<http://hyatelawqaf-eg.org/sub%20pages/HistoryInfo.htm> .a

(18) أوائل المطبوعات العربية بداية تاريخ جديد لثقافة الأمة -الأحد 4 إبريل 2010 |
القراءات: -373 شوقي | كليب | يحي.

رجال الدين ودورهم السياسي في سلطنة سنار (الشيخ إدريس بن الأرباب أنموذجاً 913 - 1060 هـ / 1507 - 1650 م)

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر- السودان

د. عوض أحمد حسين (شباب)

المستخلص:

هذه الورقة تتناول الدور السياسي لرجال الدين في بلاط السلطنة السنارية (1504_1821م)، وهذا التناول يتخذ الشيخ إدريس ود الأرباب موضوعاً للدراسة، وهو أحد أهم رجال الدين تأثيراً في تلك الفترة. مما يضيف على هذه الدراسة أهمية خاصة لأن تتبع المكانة العالية التي كان يتمتع بها رجال الدين لدى سلاطين سنار، ومشاركتهم السياسي. اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، وخلصت إلى عدة نتائج أهمها أن المؤسسة الدينية لعبت أدواراً مهمة في الحياة السياسية السودانية في معظم الفترات التاريخية التي مرت على السودان منذ أقدم العصور وحتى فترة السلطنة السنارية .

كلمات مفتاحية: رجال الدين، سلطنة سنار، الشيخ إدريس ود الأرباب.

Clergy and their political role in the Sultanate of Sennar (Sheikh Idris bin Al-Arbab as a model) (913 - 1060 AH / 1507 - 1650 AD)

Dr. Awad Ahmed Hussein (Shab)

Abstract:

This paper deals with the political role of the clerics in the court of the Sennari Sultanate (1504_1821 AD) and this discussion takes Sheikh Idris Wad al-Arbab as a subject for study, and he is one of the most influential clerics in that period. Which gives this study a special importance because it traces the high position enjoyed by the clerics of the sultans of Sennar, and their political participation. This study relied on the analytical historical method, and concluded with several results, the most important of which is that the religious institution played important roles in the Sudanese political life in most of the historical periods that Sudan passed through from the most ancient times until the period of the Sennari Sultanate.

Keywords: clerics, the Sultanate of Sennar, Sheikh Idris and Wad al-Arbab.

المقدمة:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز ملامح من الدور السياسي الذي قام به رجال الدين، ونعني بهم العلماء والفقهاء والمتصوفة، في المنظومة السياسية للسلطنة السنارية (1504-1821م) بإتخاذ الشيخ إدريس بن الأرباب، أحد أهم رجال الدين في تلك الفترة نموذجاً؛ من جهة أخرى فإن هذه الدراسة تحاول أن تلقي بعض الضوء على جانب من النظام الإداري والسياسي لمملكة سنار من خلال هذا الدور ومدى تأثير رجال الدين على اتخاذ القرار، ومن هنا تنبع أهمية الدراسة حيث يمكن الاستفادة من التجربة السنارية في هذا الجانب، والاستعانة بها في النظام الإداري والسياسي للدولة السودانية الحديثة.

اعتمدت هذه الدراسة بصورة أساسية على مصدرين سودانيين مهمين هما: احمد الشيخ كاتب الشونة وآخرون، تاريخ ملوك السودان، تحقيق: مكي شبكية، ط1، (الخرطوم: الدار السودانية للكتب، 2004م)، ومحمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق: يوسف فضل حسن، ط1، (الخرطوم: جامعة الخرطوم - قسم التأليف والنشر، 1971م)، إلى جانب بعض المراجع التي تناولت هذا الموضوع. وقد اتبعت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي كمنهج رئيسي، وتم تقسيم موضوعاتها إلى المحاور الآتية:

1. مكانة ودور رجال الدين في سلطنة سنار.
2. من هو الشيخ بن الأرباب.
3. حق الحجز عند سلاطين سنار.
4. دوره في الصلح بين الفونج والعبدا.
5. خاتمة بالنتائج والتوصيات.

مكانة ودور رجال الدين في سلطنة سنار:

لعبت المؤسسة الدينية دوراً مهماً وبارزاً في الحياة السياسية السودانية منذ قيام المدنات القديمة، ويظهر هذا الدور بكل وضوح في فترة الحضارة الكوشية بفترتيها النبتية والمروية (900م-350م) حيث كان يتم إكمال مراسم تتويج الملوك بمباركة كهنة الإله آمون ويستمد منهم الملوك سلطة روحية تعزز من سلطتهم السياسية (1)، وكذلك كانت للمؤسسة الكنسية دور مهم في تدعيم السلطة السياسية لدى ملوك الممالك النوبية المسيحية (500-1500م) (2).

بعد انهيار الممالك النوبية المسيحية وانتشار الإسلام، قامت عدة ممالك وسلطنات إسلامية أهمها سلطنة سنار أو مملكة الفونج (1504-1821م)، ويلاحظ في هذه الفترة أيضاً استمرار نفوذ المؤسسة الدينية على السلطة السياسية تبلور في رجال الدين الذين كان لهم دور مهم ومكانة مرموقة في سلطنة سنار، وقد صنفهم عبد العزيز محمد موسى في دراسته عن الطبقات الاجتماعية في سلطنة سنار في المرتبة الثانية بعد طبقة رجال الدولة مباشرة مبنياً أهمية هذه الطبقة في سرده التالي: «تعتبر طبقة العلماء وشيوخ الطرق الصوفية من أهم الشرائح في المجتمع السناري ... وكان لهذه الدوائر الدينية نفوذاً اجتماعياً كبيراً وكان سلاطين الفونج يحسبون لهم حساباً ويستمعون

لنصائحهم ويقطعونهم ، بل هناك من سلاطين مملكة سنار من أصدر أوامره بإعفاء المشايخ من الضرائب...، فبلغ بعض المشايخ حداً من الثراء جعلهم ينافسون الدولة ذاتها ، وكانت لرجال الطرق الصوفية ، بعض المناصب الرسمية في مملكة سنار منها شيخ السجادة ووظيفته رعاية شئون الطرق الصوفية ورجال الدين ، وكان يقودهم في المناسبات العامة ويشار إليه بالمقدم أحياناً...» (3)؛ ويحاول عبد الله علي إبراهيم تتبع الركائز التي تأسست عليها العلاقة بين رجال الدين ويسميهم الفقهاء المتصوفة وملوك سنار ليخلص إلي أنها قامت علي دعامين أساسيتين: «إحادهما النفوذ الروحي الذي كان يمارسه المتصوفة علي الملوك ، كما كانوا يمارسونه علي الرجل العادي. والثانية، القيام بمصالح المسلمين، حيث جعلوا من (مسايدهم) ملاذاً للمقتفي والمرقوب والمريض والمظلوم والحائر، ومن نفوذهم علي أهل السلطان وسيلة لدرء الظلم والحاجة عن المسلمين . وجعلوا من التفاف المسلمين من حولهم، الناجم عن برّهم لهم والقيام بأمرهم ، قوة تضي علي نفوذهم الروحي، علي أهل السلطان، قوة سياسية.» (4).

من الواضح أن رجال الدين أصبحوا من أصحاب النفوذ الروحي والاجتماعي والسياسي في ظل الدولة السنارية ، ومكوّن أساسي من مكونات الدولة ؛ ولا أكون مبالغاً إن قلت أن المؤسسة السياسية كانت تلجأ في أحيان كثيرة إلي رجال الدين لحل أعصي المشاكل التي كانت تواجهها حتى علي مستوي تنصيب السلاطين والملوك (5)، كما كان بعض رجال الدين لهم دور مهم في بلاط الحكم مثل الشيخ إدريس ود الأرباب (موضوع الدراسة).

الشيخ إدريس بن الأرباب :

هو الشيخ إدريس بن محمد بن علي ، المشهور بإدريس ود الأرباب ، جذوره تمتد إلي مناطق المحس في شمال السودان (نفسه : 49-50)، وجاء في مخطوطة كاتب الشونة بأنه كان: «من المعمرين؛ لأنه ولد سنة 913 وتوفي سنة 1060 فيكون عمره مائة وسبعة وأربعين سنة» (6). أما مكان ميلاده فقد أورد صاحب الطبقات روايتين؛ الأولى: تقول انه ولد بالعيله فونج ، والثانية: تقول بالحليلة شوطحت (7)، ويشرح لنا محقق كتاب الطبقات يوسف فضل حسن المكانين علي النحو التالي: العيلة فونج هي العيلفون الحالية، بعد أن تحول اسمها، الواقعة علي شاطئ النيل الأزرق علي بعد 21 ميلاً جنوب شرق الخرطوم، وأصل الكلمة مكونة من مقطعين : الأول عيلة أي عبيد، والثانية فونج؛ ويورد رواية لحفدة الشيخ إدريس ود الأرباب تقول إنه خرج إلي تلك الجهة انقطاعاً للعبادة وكان يجاوره فيها عبيد الفونج الذين كانوا يشرفون علي علف خيل الفونج، واشتهرت هذه المنطقة بعد أن استوطنها الشيخ إدريس؛ أما اسم الحليلة شوطحت فيشير إلي منطقة شمبات الحالية، وربما الاسم القديم لأحد ضواحيها علي حسب روايات أهلها، ثم يستنتج من هذه الروايات أن الشيخ إدريس ربما ولد في هذه المنطقة ثم انتقل بعدها إلي العيلفون واستقر بها حتى وفاته (8). وهناك رواية شفاهية متداولة عند احدي الأسر في جقوب (قرية المقاعدة - وحدة دنقلا العجوز)، تقول بأن الشيخ إدريس جدهم وهو مدفون بجبانة تعرف باسمه ومشهورة في المنطقة باسم أنباب ساتي ، وأنباب كلمة دنقلاوية نوبية تعني الأب وساتي لقب

ديني والمعني أقرب الي ماهو متداول في العامة السودانية (أبونا الشيخ)، والملاحظ تكرار اسمي أورباب وإدريس بين أفراد هذه الأسرة(9)، ورغم أن هذه الرواية تخالف ما ورد في كتاب الطبقات وما هو مشهور من روايات، إلا أنه يجب النظر إليها بعين الاعتبار لأن والدة الشيخ إدريس من هذه المناطق، وهو ابن خالة الشيخ سوار الذهب صاحب خلاوي دنقلا العجوز، كما تشير بعض الروايات .

تتلمذ الشيخ إدريس في البداية علي يد الشيخ البنداري وقبره أمام الحلفاية، وتنبأ له بشأن عظيم في المستقبل، ثم واصل تعليمه علي يد الشيخ حمد ولد زروق الذي شهد له بجلالة القدر، وجالس الشيخ بان النقا الضير⁽¹⁰⁾، ثم أخذ الطريقة من الشيخ عبد الكافي المغربي⁽¹¹⁾، وأصبح الشيخ إدريس من أشهر علماء عصره، ووصفه الشيخ ود ضيف الله بقوله: «وهو الشيخ الإمام، حجة الصوفية، مرشد السالكين منقذ الهالكين، قطب العارفين، علم المهتدين، مظهر شمس المعارف بعد غروبها، الواصل إلي الله الموصل إليه... كان رضي الله عنه لا تتحدث معه في علم من العلوم إلا تحدث معك حتى يقول السامع له أنه لا يحسن غير هذا العلم. أما علوم المعارف والأسرار فقطب دجاها وشمس ضحاها. تقول إذا سمعت كلامه أعرف بخبر السماء من خبر الأرض...»⁽¹²⁾.

حق الحجز عند سلاطين الفونج :

وجد الشيخ إدريس ود الأرباب حظوة كبيرة لدى سلاطين الفونج، وصار له نفوذ كبير في بلاط الحكم، وكان أول اتصال له بسلاطين الفونج عند مرافقته للشيخ بان النقا الضير إلي سنار في عهد السلطان عماره أبو سكيكين، فقد أورد صاحب الطبقات: «ثم إن أول أمره جالس الشيخ بان النقا الضير ودخل معه سنار وسأله الملك عماره عنه، وقال له من المحس، أهله في السافل . يقال إن أم الملك عماره أبو سكيكين مرضت مرضاً شديداً فَعَزَمَ الشيخ بان النقا فلم تُعَافِ، فَعَزَمَ لها الشيخ إدريس، فعوفيت بإذن الله من حينها. فحينئذ سأله الملك عنه فقال له: هذا الولد يظهر له شأن عظيم.»⁽¹³⁾، ثم تعاظم دور الشيخ إدريس داخل البلاط الملكي حين جمع السلطان بادي بن رباط كبار أعيان المملكة وأشهدهم بأن الشيخ إدريس بن الأرباب شيخه وفي مقام والده وعرض عليه قسمة ريع المملكة كما جاء في كتاب طبقات ود ضيف الله مصدرنا الأساسي في هذا الموضوع: «ومن ورع الشيخ بأن الملك بادي ملك سنار جمع كبار الفنج... وقال لهم الشيخ إدريس شيخي وأبوي داري من العسل إلي البصل بقسمها له النص. فامتنع الشيخ وقال لهم: هذه الدار دار النوبة وانتم غصبتوها منهم أنا ما بقبلها. الرسول قال: «من سرق شبرا من الأرض طوقه الله يوم القيام به سبع أرضين». وقال لهم أعطوني الحجز في كل شي. والمملك أعطاه الحجز في كل شي كما طلبه ثم إن الشيخ دخل سنار واحد وسبعين مرة في مصالح المسلمين.»⁽¹⁴⁾.

ونخلص من خلال هذه الرواية إلي ملاحظتين مهمتين هما :

الأولى: أن الشيخ إدريس جهر برأيه بكل وضوح وجراءة في وجه السلطان وأعيان المملكة وانتقدتهم انتقاداً مباشراً بأن هذه الدولة قامت علي الظلم، وزاد علي ذلك برفضه لطلب السلطان،

الذي تجاوز هذا النقد والرفض مما يدل علي مكانة كبيرة وخاصة في البلاط الملكي ربما مستمدة من نفوذه الروحي.

الثانية: مبادرته بتقديم طلب حق الحجز المطلق بعد رفضه لعرض السلطان مباشرة وموافقة السلطان علي طلبه . ونريد أن نقف قليلا عند مفهوم أو مصطلح حق الحجز الذي وازى أو فاضل به الشيخ إدريس علي اقتسام موارد السلطنة مع سلطان الفونج. وفسر يوسف فضل محقق كتاب الطبقات الحجز بالوساطة وفض المنازعات والصلح بين المتشاجرين⁽¹⁵⁾، ولكني أظن أن مفهوم حق الحجز قد تجاوز التفسير أو المعني المشار إليه إلي مستوي مراجعة القرارات الملكية ، وكذلك المساهمة في اتخاذ القرار السياسي ، الأمر الذي اضطره الذهاب إلي سنار عاصمة السلطنة لأكثر من سبعين مرة ؛ وذلك لأن أهمية الموضوع قد تستدعي من الشيخ إدريس الذهاب بنفسه لمقابلة السلطان في مقره ، ويتجلي هذا المفهوم بوضوح استشارة . الشيخ إدريس في اتخاذ أهم قرار سيادي لأي دولة وهو قرار الحرب.

دوره في الصلح بين الفونج والعبدلاب:

تشير معظم الدراسات التي تناولت تاريخ الدولة السنارية أن ثمة تحالف ثنائي تم بين الفونج والعبدلاب في بدايات القرن السادس عشر الميلادي أُعطي بموجبه الفونج الكلمة العليا في إدارة الدولة علي أن يحكم العبدلاب المناطق الشمالية باسم الفونج⁽¹⁶⁾، وقد أشار محمد صالح إلي بعض محاور هذا التحالف⁽¹⁷⁾، رغم أن هناك الكثير من التساؤلات مازالت تطرح حول طبيعة هذه العلاقة والامتداد السياسي للفونج شمالاً⁽¹⁸⁾، إلا أنه يمكن القول على حسب ماهو متوفر من معلومات حالياً أن هذا التحالف هو أحد أهم الأسس التي قامت عليها السلطنة السنارية ، ولكن بعد قرن من الزمان انهيار هذا الحلف ووقعت حروب بين الطرفين مما هدد وجود الدولة نفسها⁽¹⁹⁾، لولا ظهور الشيخ إدريس بن الأرباب علي مسرح الأحداث السياسية ودوره الكبير في الصلح بين الطرفين وإعادة بناء التحالف من جديد والذي استمر إلي زوال الدولة السنارية ، فقد أُرِخَ كاتب الشونة لهذا الحدث قائلاً: « ثم تولى الملك عدلان ولد آبي . وفي أيامه خرج الشيخ الكافوته عن طاعته فأرسل له عساكر بكثرة ووقع بينهم مصاف قريب كركوج وقتل الشيخ عجيب وانهزمت عساكره وفرت عائلته إلي جهة دنقلا فأرسل لهم الملك الأمان مع الشيخ محمد أحمد الأرباب من اشتهر بالصلاح وقتها وبعد رجوعهم بالغ في إكرامهم وأقام أكبرهم وهو العجيل شيخاً علي قَرَى كما كان والده...»⁽²⁰⁾. وتؤكد هذه المعلومة رواية أسرة ود عجيب التي تقول أنهم احتماوا بشيوخ دنقلا العجوز بعد هزيمتهم علي يد سلطان الفونج واستقر بعضهم بعد الصلح في حوض لتي المتاخم لدنقلا العجوز من الناحية الشمالية الشرقية، ثم انتقلوا بعدها إلي منطقة المقاوودة علي النيل الواقعة غرب حوض لتي وشمال دنقلا العجوز⁽²¹⁾. ويحصر إدريس سالم هذا الدور المهم الذي قام به الشيخ إدريس وحافظ به علي كيان الدولة الفتية من التداعي علي علاقة القرَبِي التي تربط بين الشيخ إدريس والشيخ عجيب قائلاً: «ووالدته (الشيخ إدريس) يزعم أنها ابنة الشيخ حمد أب دنانة وهو بذلك يكون ابن خالة الشيخ عجيب الكافوته (المانجلك)وهذا يفسر

تدخله للوساطة بين أولاد عجيب والملك عدلان ود آية عندما هزم الأخير أولاد عجيب وهربوا إلى دنقلا. واستطاع الشيخ إدريس أن يعقد صلحاً بينهم ومما ساعد في ذلك أن الملك بادئ بن رباط (ملك الفونج) كان حواراً للشيخ إدريس» (22)، بالرغم من أنه ألمح للدور الروحي -وله أهميته- نظن أن السببين المذكورين قد ساعدا في صياغة هذا التحالف من جديد، وأن الشيخ إدريس كان له دور أساسي في هذا الصراع حيث كان له موقف واضح فيه حتى قبل اندلاعه فعارض الشيخ عجيب الكافوتة حين شاوره في حرب الفونج، وعندما رأى عزمه؛ شجّع سلطان الفونج علي حربه وتنبأ له بالنصر مستغلاً سلطاته الروحية، ونستشف ذلك من خلال رواية ضيف الله: «... ومنها إخباره للشيخ عجيب حين شاوره على حرب الفنج قال للشيخ: الفنج غيروا العوايد علينا قال لا تحرب عليهم فإنهم يقتلك ويهلكوا ذريتك من بعد إلي يوم القيامة. فكان الأمر كما ذكر. ومنها إخباره للملك بادئ بن رباط جاء سيد قوم للملك عدلان ولد آية طالبين قتال الشيخ عجيب وبادي المذكور هو حوار الشيخ إدريس فسأله عن أمره فقال له: تقتلوا الشيخ عجيب وتنتصروا وأنت ترجع إلى سنار ويكون الملك في ذريتك من بعدك. فكان الأمر كما قال.» (23).

من الواضح إن الشيخ إدريس كان معاصراً لبوادر هذه الفتنة بين الطرفين وانه كان رافضاً لها وأمام إصرار ابن خالته على خوض الحرب رأى أن كفته من الناحية العسكرية والاقتصادية أقل من كفة الفونج، لذا فضل حسم هذا الصراع عسكرياً أولاً لأنه ضرورة للحفاظ على السلطنة من التصدع، فأذن لحواره سلطان سنار بما يملك من سلطة روحية على الحرب ودعمه معنوياً، وربما كان للشيخ إدريس دور أيضاً على أرض الواقع في دعم موقف السلطان لدى الكيانات السياسية والدينية في المناطق الشمالية مما هيأ الظروف لانتصار الفونج، وبعدها وقع على كاهل الشيخ إدريس إعادة صياغة التحالف السياسي بين الفونج والعبدلاب على أسس جديدة وبهذا يكون له دور كبير في إعلان قرار الحرب وكذلك في الصلح بين الطرفين.

إن موقف الشيخ إدريس ود الأرباب في هذه القضية مبدئي وهو المحافظة على السلطنة السنارية من التفكك والانهييار ككيان إسلامي سياسي موجود، ورؤيته السياسية في استمرارية الدولة قائمة على أساسين هما: العدل وعدم التحزب والانقسام اللذان يؤديان للصراع الداخلي أو بمعنى آخر المحافظة على الجبهة الداخلية؛ ونستنتج هذين الأساسين من خلال ترجمة ضيف الله للشيخ إدريس حيث أورد أن الشيخ إدريس أجاب الشيخ دفع الله حين سأله عن مصير الفونج بعد السلطان رباط بن بادئ فقال: «آخره ملك أوله اسمه باء طالعة أول ملكه عدل وآخره ظلم. ثم قالوا له وما يكون بعده؟ قال مليكات فكان الأمر كما قال.» (24)، وفي رواية أخرى انه تنبأ بزوال ملك الفونج بسبب الصراع على السلطة: «ومن أخباره أن ملك الفونج ينقضي وسبب انقضائه أنهم يتحاربون وينقسمون على قسمين تقاتل كل طائفة الأخرى حتى يضيع ملكهم.» (25).

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة الموجزة التي بعض ملامح الدور السياسي لرجال الدين في سلطنة سنار (1504-1821م) بالتطرق إلي دور الشيخ إدريس بن الأرباب والذي امتلك عدة مميزات

شخصية إلى جانب سلطاته الروحية والدينية، أهله ليكون من أكثر رجال الدين تأثيراً في بلاط السلطنة السنارية منها:

1. وعيه بالأحداث السياسية ومآلاتها، وربما كانت لأسرته ذات صلة بالبيوت الحاكمة في المناطق الشمالية - نستنتج ذلك من لقب الأرباب أحد ألقاب الحكم والسلطة في تلك المناطق- أثر في هذا الجانب .
2. كان للشيخ إدريس شجاعة نادرة في الإفصاح عن رأيه والجهار به دون مواربة، ونلاحظ ذلك أيضاً في آرائه الفقهية والاجتماعية، وهذه الصفة جعلته مبتغي لمن يريدون صادق النصح والمشورة .

وقد خلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها :

1. لعبت المؤسسة الدينية أدوار مهمة في الحياة السياسية السودانية في معظم الفترات التاريخية التي مرت علي السودان منذ أقدم العصور وحتى فترة سلطنة سنار ، وإن تغيرت أساليبها وأشكالها من فترة لآخرى .
 2. كان لرجال الدين وخاصة شيوخ الطرق الصوفية - كأفراد وليس كمؤسسات دينية منظمة - دور مؤثر وفعال في الحياة السياسية والاجتماعية في سلطنة سنار، وهذا التأثير مستمد في الغالب من سلطاتهم الروحية علي الراعي والرعية .
 3. يعتبر الشيخ إدريس ود الأرباب (نموذج الدراسة) من أهم رجال الدين الذين كان لهم بصمة واضحة في بلاط الحكم السناري مراجعةً وتأيداً للقرارات السلطانية ، ومساهمةً في الحفاظ علي السلطنة من الضعف والتفكك.
- ومن خلال هذه الدراسة والنتائج التي توصلت إليها نتقدم بالتوصيات الآتية :
1. إجراء مزيد من الدراسات حول العلاقة بين رجال الدين والسلطات السياسية في فترة الممالك والسلطنات الإسلامية، وبيان دورهم السياسي والاجتماعي في هذه الفترة .
 2. دراسة نماذج لرجال الدين المؤثرين والفاعلين في الحياة السياسية في فترة الممالك والسلطنات الإسلامية (1500-1800م) وفترة الحكومات الوطنية في الدولة السودانية الحديثة ومقارنة تجاربهم ومدى تأثيرهم إيجاباً أو سلباً علي الأنظمة السياسية والإدارية .

الهوامش:

- (1) لمزيد من التفاصيل، راجع: عمر حاج الزاكي، مملكة مروي التاريخ والحضارة، (الخرطوم، 2008م)، الطبعة الثانية من سلسلة إصدارات وحدة السدود.
- (2) لمزيد من التفاصيل، راجع: الأب. ج. فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، (الخرطوم، 1978م).
- (3) عبد العزيز محمد موسى، «الطبقات الاجتماعية في مملكة سنار»، مؤتمر سنار: المدينة - العاصمة - الحضارة، المؤتمر العلمي الثاني ضمن فعاليات نار عاصمة الثقافة الإسلامية 2017م، الأمانة العامة بالتعاون مع جامعة النيلين، (31 مايو - 1 يونيو، 2016م)، قاعة الصداقة - الخرطوم، ص 393.
- (4) عبد الله علي إبراهيم، الصراع بين المهدي والعلماء، ط3، (الخرطوم: هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، 2014م)، ص 28-29.
- (5) محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق: يوسف فضل حسن، ط1، (الخرطوم: جامعة الخرطوم - قسم التأليف والنشر، 1971م)، ص 84.
- (6) أحمد الشيخ كاتب الشونة وآخرون، تاريخ ملوك السودان، تحقيق: مكي شبيكة، ط1، (الخرطوم: الدار السودانية للكتب، 2004م)، ص 9.
- (7) محمد النور ضيف الله، المصدر السابق، ص 50.
- (8) نفس المصدر، ص 50.
- (9) لمزيد من التفاصيل، راجع: عوض شبا، دراسة تاريخية فلكلورية لمدافن القرى في دنقلا (مدافن المقاودة)، بحث غير منشور.
- (10) محمد النور ضيف الله، المصدر السابق، ص 50.
- (11) أحمد الشيخ كاتب الشونة وآخرون، المصدر السابق، ص 10.
- (12) محمد النور ضيف الله، المصدر السابق، ص 49.
- (13) نفسه، ص 50-51.
- (14) نفسه، ص 60.
- (15) نفسه، ص 60.
- (16) لمزيد من التفاصيل، راجع: يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي (1450-1821م)، ط4، (الخرطوم، 2002م).
- (17) لمزيد من التفاصيل، راجع: محمد صالح محي الدين مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسية (910_1236هـ) - (1504_1821م)، ط1، (الخرطوم: الدار السودانية، 1972م).
- (18) لمزيد من التفاصيل، راجع: عوض أحمد حسين شبا، الفونج وإقليم دنقلا « مؤتمر سنار: المدينة - العاصمة - الحضارة، المؤتمر العلمي الثاني ضمن فعاليات نار عاصمة الثقافة الإسلامية 2017م، الأمانة العامة بالتعاون مع جامعة النيلين، (31 مايو - 1 يونيو، 2016م)، قاعة الصداقة - الخرطوم.

- (19) محمد صالح محي الدين، المرجع السابق.
- (20) أحمد الشيخ كاتب الشونة وآخرون، المصدر السابق، ص10.
- (21) عوض شبن، المدافن، المرجع السابق.
- (22) إدريس سالم الحسن ، « الأسر الدينية والقراية في كتاب الطبقات » ، مؤتمر كتاب طبقات ود ضيف الله ، ضمن فعاليات سنار عاصمة للثقافة الإسلامية 2017م ، المؤتمر العلمي الأول (4-5 أغسطس 2015م) قاعة الشارقة _ جامعة الخرطوم، ص9.
- (23) محمد النور ضيف الله، المصدر السابق، ص63-64.
- (24) نفسه، ص62-63.
- (25) نفسه، ص64-65.
- (26) كرم الصاوي باز، ممالك النوبة في العصر المملوكي_اضمحلالها وسقوطها، وأثره في انتشار الإسلام في السودان وادي النيل (من 648_932 هـ / 1250_1517م)، ط1، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 2006م)، ص166-167.

الملاحق:

ملحق رقم (1)

أهم شروط الحلف بين الفونج والعبدآب

1. أن يقود عبد الله جماع الجيش ويهد حليفه عمارة بالعسكر والمؤن.
 2. أن العرب الموجودين في منطقة الفونج يخدمهم شيخ دار ولد جماع.
 3. النجدة عند الحاجة بالقوة والمال إذا اعتدت دولة أخرى على الجزء الذي يحكمه العرب، أو الجزء الذي يحكمه الفونج.
 4. التولية لأي رئيس جديد في سنار أو قري لا تتم إلا بحضور مفوضين من العاصمتين، على أن يكون الكبير في السن من أبناء الشيخ عبد الله جماع أو الملك عمارة دونقس هو صاحب الكلمة فيها .
 5. إذا حضر ولد جماع بسنار عاصمة الفونج لا يدق نحاس مع نحاسه وكذلك الحال بقري (عاصمة العبدآب) لا يدق نحاس مع نحاس ملك الفونج .
 6. رؤساء قبائل العرب الذين هم أهل الطواقي (شارات الملك) أو المشيخات ... تكون توليتهم في قري، وكان إبرام هذا الاتفاق سنة 910هـ / 1504م باتفاق جميع الروايات (26). هذه الشروط جمعها ورتبها كرم الصاوي باز من عدة مصادر، ويبدو أن هذه الشروط تعدلت بعد هزيمة الشيخ عجيب من الفونج _ كما وضحنا (
- الصور:

صورة رقم (1)

مقام الشيخ إدريس ود الأرباب بالغيلفون (صورة من الانترنت/موقع ويكيبيديا)



صورة رقم (2)

صورة عامة لمدافن أنباب ساتي (مكان دفن إدريس ود الأرباب المزعوم)



معركة أبو طليح 17 يناير 1885م ودورها في تحرير الخرطوم (دراسة تحليلية من منظور عسكري إستراتيجي)

مدير المتحف الحربي - الخرطوم

د. عمر النور أحمد النور

مستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على معركة أبو طليح 17 يناير 1885م ودورها في تحرير الخرطوم وهي تعتبر معركة (تعطيلية) من خلالها استطاعت قوات الامام المهدي من تعطيل القوات القادمة (الحملة القادمة لإنقاذ غردون) وتفريق قوات غردون. وتعتبر هذه المعركة من اهم المعارك التي خاضتها قوات الامام المهدي لأنها كانت السبب في تعطيل خط سير الحملة - وتشتيتها وجرح قائد القوة السبب الذي أدى لانتصار قوات الامام المهدي في تحرير الخرطوم - وإسقاطها ومقتل غردون في 25 يناير 1885م بالخرطوم حينما فشلت الحملة من الوصول. اهتمت الورقة بالشرح المفصل لتكوين قوات معركة أبو طليح من طرف قوات المهدي ومن ثم القوات الاخرى (الانجليزية) ومن ثم طريقة الهجوم وكيفية نجاح القوة في تعطيل القوات الانجليزية أكثر من مرة حتى سقطت الخرطوم. أتبع الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي بغية الوصول الى نتائج منها..مقتل غردون باشا يعتبر هزيمة كبرى لإمبراطورية كبرى (بريطانيا) من جيش غير نظامي .قوة العقيدة القتالية لقوات المهدي ، كانت دافع كبير في تحقيق النصر .

كلمات مفتاحية: تحرير الخرطوم- أبو طليح ، حملة الانقاذ ،قوات المهدي- غردون باشا .

BATTLE OF ABU TELIH 17 JANUARY 1885 AND ITS ROLE IN LIBERATION OF KHARTOUM ANALYTICAL STUDY FROM STRATEGIC MILITARY PARSPECTIVE

Omar Al – Nour Ahmed Al- Nour

Abstract:

This study aims to shed light on the Battle of Abu Telih 17 January 1885. Which considered as a (disrupting) battle, through which that Imam El Mahadi's forces disrupted the coming forces (Coming Campaign for rescuing Gordon) and parted his forces . This Battle considered as one of the most important battles that Imam El Mahad's forces fought because they were disrupting the campaign and wounded its commander, the reason that led to victory of Imam El Mahadi forces in liberation and overthrow of Khartoum and killed Gordon 25 January

1885 when the Campaign failed to reach Khartoum. The paper focused to explained in detail the formation of Abu Telih battle, El Mahidi's forces and then the other forces (The British forces) then the way of attack and success of El Mahadi forces to disrupt the British forces more than one time until overthrow of Khartoum. The researcher followed the historical descriptive analytical method in order to reach the result as : Killing of Gordon Basha is considered as a major defeat for a major empire (Britain). Strong fighting doctrine of El Mahadi forces was a great motivation to achieve victory.

Key words: Liberation of Khartoum – Abu Telih – The Rescue campaign – Mahadia forces – Gordon Basha.

مقدمة :

لدراسة معركة أبو طليح 17 يناير 1885م والتي تمثل واحدة من معارك الأمة السودانية في فترة المهديّة والمعارك الكثيرة التي خاضتها الأمة قبل وبعد هذه المعركة ،لابد من الرجوع إلى الأهداف والدوافع لدى الطرفين لمعرفة الأسباب الأساسية التي تأسست عليها هذه المعركة . ومما أن معركة أبو طليح كانت من خلال منظورنا المحلي هي السبب الرئيسي في عدم مقدرة الحملة الإنجليزية على الوصول الى الخرطوم في الزمن المناسب وبالقوة المناسبة بحيث يؤدي ذلك الى عدم سقوط الخرطوم في أيدي قوات المهديّة المحاصرة المدينة في تلك اللحظات . وان حدث وتم ذلك فإن تاريخ السودان كان سيتغير تماما تبعا لاستمرارية احتلال المستعمر الإنجليزي وبالتالي بناء الدولة على الأسس التي تنطلق منها دولة المستعمر سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية ، بالضرورة ستمس الجانب الديني والعائدي . مع ملاحظة أن الأهداف والدوافع في تلك الفترة كانت تختلف باختلاف الجهات المتصارعة في السودان اذا خصناها في ثلاث هم الوطنيين في السودان والأتراك في مصر و الإنجليز في بريطانيا فإنه يتضح بأن لكل منهم أهدافه و دوافعه .

الأهداف و الدوافع البريطانية :

- الأهداف و الدوافع على المستوى الإستراتيجي والتعبوي (تحليل)
- الإنفراد باحتلال السودان بعد إبعاد الجانب المصري تحت حكم الأتراك
- كانت تلك بداية النهضة الصناعية لبقية دول أوروبا وبالتالي تعنى الحوجه إلى المواد الخام لإدارة ماكينات الصناعات و الأسواق . وبالتالي المنافسة .
- نشر الديانة المسيحية والتمكين للمبشرين و الدعاة .
- ضرب الثورة الدينية الوليدة في السودان وإخمادها نارها .
- الانتقام من قتلة القادة الإنجليز أمثال هكس باشا و استيوارد و هازمى الجنرالات أمثال فالنتاين بيكر .

– إنقاذ العلم البريطاني غردون باشا وبالتالي الاحتفاظ بالسودان تحت المظلة البريطانية.
– غزو السودان يعتبر نزهة ونوع من التغيير والمغامرة غير الخطرة وبالتالي يمكن لأبناء
الأسر الراقية و اللوردات الاشتراك في ذلك بما يمكنهم من الحصول على الميдалиات و
الأوسمة .

على المستوى التعبوي .⁽¹⁾ كان الهدف هو تقدم طابور الصحراء من منطقة كورقي على
نهر النيل ثم إنشاء قاعدة في منطقة جقدول واحتلال منطقة أبي طليح والمتممة تمهيدا للانطلاق
الى الخرطوم .

على المستوى الميداني .⁽²⁾ كان هدف طابور الصحراء تدمير مقاومة الثوار في منطقة أبي طليح
و الوصول الى الآبار .

يرى الكتاب الإنجليزي ومؤرخي معركة أبي طليح بما فيهم الكتاب المصريين ، ان معركة أبي
طليح انتهت بسحق قوات الثوار وتكبيدهم خسائر كبيرة واستمرار الحملة في طريقها الى المتممة
ثم الى الخرطوم ولكن تأخر الحملة في منطقة القبة جنوب المتممة لمدة خمس أيام قبل تحركها
للخرطوم هو سبب سقوط الخرطوم وليس معركة أبي طليح

تكوين القوة :

القوات البريطانية . من المراجع التي استندت على الوثائق البريطانية ، يتضح شكل
القوات البريطانية أفراد وقادة وكيف تم اختيار القوات من الوحدات العسكرية المختلفة التي
تتمتع بتأهيل وخبرة طويلة في معارك فعلية ، وقادة مشهود لهم في الميدان وفي حسن التصرف
وإجادة أعمالهم بالإضافة الى الدعم المادي و المعنوي الكبير الذي شاركت فيه الصحف في ذلك
الوقت ، وتهيئة الرأي العام البريطاني ودعمه المؤيد للحملة وجدير بالذكر هنا هو الكيفية التي
تم بها اختيار قائد الحملة الذي يجب ان نعرف بأنه المشير فسكاونت قارنت جوزيف ولسلي
،نائب القائد العام للجيش البريطاني والذي تم اختياره بواسطة وزير الحربية البريطانية . اما
ميزانية الحملة فلقد كانت مشار جدل في مجلس الوزراء البريطاني الذي وصل أخيرا إلى إرسال
الحملة بأغلبية تسعة وزراء مقابل ثلاث وزراء وبتكلفة تبلغ ثلاثمائة الف جنيه إسترليني في حينه،
وهي ميزانية ضخمة بحساب ذلك الزمان ولنأتي لتوضيح القوات التي شاركت في الحملة ، قيادة
و أفراد وعناصر أخرى .

– قائد الحملة . المشير سير قارنت ولسلي نائب القائد العام للجيش البريطاني

– نائب قائد الحملة . اللواء بولر والذي قال عنه تشرشل انه افضل مثال للضابط
البريطاني . اشترك في حروب السودان ضد عثمان دقنة واشترك في حملة احتلال مصر
وهو من الذين يجيدون عملية التنظيم والإدارة .

– قائد طابور الصحراء⁽³⁾ . العميد سيرهربرت استيوارت اشترك في كل الحروب أثناء فترته
ورقى لرتبة اللواء بعد إصابته في منطقة إبي خروق ويتميز بشجاعة خارقة ومن أميز
الضباط الإنجليز .

– نائب قائد طابور الصحراء العقيد فردريك جوستاف بيرني والذي كان من المفترض أن يصبح كمندان الممتدة بعد احتلالها ولكن جرح في معركة أبي طليح .

– يعرف عنه بأنه انتهazy مغامر مثقف وكاتب .. يحب القتل تجزئة وجملة ولصفاته هذه عينة ولسلى نائب لقائد طابور الصحراء .

– قائد سلاح الاستخبارات العقيد سير تشارلز وليم ولسون عينه ولسلى قائد لسلاح الاستخبارات وكتب له بمصر خطاب يقول له فيه بأنه أفضل شخصية يراها لإدارة استخباراته وهو الزى استلم قيادة طابور الصحراء بعد مقتل نائب الطابور وجرح القائد الطابور .

قائد لواء الهجانة الخفيف ⁽⁴⁾ العقيد إستانلى كلارك . احد الذين استبدل بهم أمير ويلز ابن الملكة فكتوريا الذي كان يرغب في الانضمام للحملة وهو احد الذين اعتقدوا بأن الحملة ستكون نزهة ولكنه للأسف هرب قبل نهاية النزهة . قائد قوات الاسطول الملكي : لورد تشالز بيرسكورن احد اصدقاء امير ويلز من النبلاء ضابط بحرية شهير ، مشاكس مغامرا قادة المدمرة التي قصفت مدافع المدفعية المصرية بالإسكندرية وهو من اوكل له تنظيم مدينة الاسكندرية وتنظيفها من الثوار بعد احتلالها وهو المسئول عن المدفع القاردرن في معركة ابي طليح . قائد حرس الهجانة : (فارذر) الشريف مقدم ي . ي . د . تالبوت من لواء لايف قارذر . قائد لواء حرس الهجانه ⁽⁵⁾ . (فارذر) الشريف مقدم ي . ي . بوسكاون من لواء الكولد استريم قارذر . قائد لواء مشاة الهجانه . الشريف رائد قوف من لواء السواري . نائب قائد لواء الهجانه الثقيل . ⁽⁶⁾ نقيب لورد سنت من لواء الرماحة 16 . نائب قائد لواء الهجانه الخفيف . نقيب . هـ . باجت من لواء السواري السابع . نائب قائد لواء حرس الهجانه (قارذر) س . كرتشلي من لواء السكوتز فارذر . نائب قائد لواء مشاة الهجانه . نقيب . ن . س ويل من لواء نور توك . الاطباء الذين صاحبوا الحملة . الجراح ج . ج . تالف السلاح الطبي . الجراح كونكي السلاح الطبي . الجراح ج ماجيل من لواء الكولد استريم فارذر .

ضباط لواء الهجانة الثقيل . إمدادات ملازم لي من لواء اللايف قارذر . قائد فصيلة الشريف رائد . يالينق ، النقيب لورد كوكز . الرائد لورد . أ . سمرست ، النقيب أ ل قولد النقيب ج دبل يو داوي نقيب دبل يو هـ اترنون رائد دبل يو قوف نقيب دبل يو هـ هيبيل رائد ل قارميشل رائد ل دينسون بالإضافة إلي عشرة ملازمين بالفصائل .

ضباط لواء الهجانه الخفيف : تسعة ضباط قادة الفصائل وتسعة ضباط بالفصائل . ضباط حرس الهجانة . تسعة ضباط قادة الفصائل وتسعة ضباط بالفصائل . ضباط لواء مشاة الهجانة : 15 ضباط قادة الفصائل والسرايا .

القوات والعناصر الأخرى . لواء الهجانه الثقيل . عشرة فصائل سحبت من عشرة ألوية . لواء الهجانه الخفيف . تسعة فصائل سحبت من تسعة ألوية . لواء حرس الهجانه . تسعة فصائل سحبت من ستة ألوية . لواء مشاة الهجانه . أربعة سرايا كل منها سحبت من عدة ألوية . قوات

مصرية : تضم طواقم مدفعية ومشاه . خدم انجليز وقادة جمال : الخدم كانوا مدربين وعددهم مائتين وعشرون جندي 220 جندي وهم الذين أتوا مع سادتهم اللوردات والإشراف . قادة الجمال عددهم مائة وعشرون (120) . مجموعة لواء . لإعمال طوابير الاستعراض وعددهم مائة وعشرون 120 . السواري : عددهم مائة وخمسون فارس للاستطلاع . الأسطول الملكي : خمسون جنديا . المدفعية : نصف بطارية مدفعية عدد أفرادها ثلاثون جندي 30 جندي . صحفيون وكتاب: عددهم عشرة . الجمال التي استخدمت : ومائة ثمانية وثمانون جمل . جياذ : مائة وخمسة وثلاثون جواداً .

قوات المهدي :الأمير موسي محمد الحلو القائد العام للقوات . قوات الجعليين بقيادة الأمير عبد المجاهد محمد خوجلي ويساعده الأمير الحاج علي ود سعد وتعداد القوة التي اشتركت في المعركة ألفي مقاتل .قوات الراية الخضراء بقيادة الأمير موسي ود حلو وتعداد المشتركين في المعركة ثلاثة آلاف مقاتل نصفهم راجل ونصفهم فرسان ويساعد الأمير موسي كل من محمد ود بلال يقود ارباع دغيم ، عبد الله برجوب يقود أرباع اللحويين ، إبراهيم عجب الفبه يقود جزء من ربع كنانة ، البشير عجب الفية جزء من ربع كنانة ، احمد جفون يقود ربع الشنخاب .

تحليل العسكري:

بالنظر لتكوين القوتين يتضح للقارئ الاختلاف بين القوتين من حيث أن القوات البريطانية عبارة عن قوات عسكرية نظامية مدربة تدريب عال ومؤهلة بالخبرة الطويلة وبكميات التجارب العملية من الحروب التي خاضتها . الإعداد والتجهيز بما فيه من اختيار نوعية القوات والقادة والأسلحة لهذه الحملة والذي تم بعناية كبيرة والدعاية التي صاحبته . الأهداف والدوافع التي أرسلت بموجبها الحملة .العقيدة التي يقا تل كل طرف من اجلها . الدعم المادي والمعنوي الذي دعمت به القوات الانجليزية .

فإذا كانت القوات البريطانية المنظمة ، وذات التاريخ والتدريب والخبرة ، في مقابل قوات ثائرة في منطقة تتميز بالخصوصية مثل عمليات الأدغال او الجبال او القتال في المناطق المبنية فأن المعادلة بمقياس تعادل القوي (7) تتقارب وبالتالي يكون هنالك قبول لخسارة الجيش الانجليزي . ولكن ما تم في معركة ابو طليح عبارة عن مواجهة مباشرة لقوتين الأولى عسكرية منظمة هي الجيش الانجليزي والثانية عبارة عن قوات ثوار داعمها الأساسي هو العقيدة القوية (8) والشعور باستلاب الحقوق وحماية الأرض والعرض لذلك نجد ان النجاح قد حالهم لان الأمر يرتبط ارتباط قوي بالعقيدة التي يقا تل من اجلها الفرد وهذا عامل حاسم وتأتي أهميته بمرجعية ان الانجليز كانوا يقاتلون من اجل الحياة وذلك يعني الارتباط والتشبث بها خلاف الثوار الذين كانوا يقاتلون وأشواقهم معلقة بابواب جنات النعيم التي مدخلها يمر عبر بوابة الشهادة .

إذا نظرنا إلي الأهداف والدوافع التي من اجلها يقاتل المقاتل الانجليزي ، نجد انها غير مرتبطة به ارتباط عقائدي او وجداني او تمثل شيء يمكن في النهاية الموت من دونه او لا مفر من ان تموت من اجله . بل أهداف ودوافع يمكن ان يتخلص منها الفرد في اي لحظة من اللحظات

القاسية المريرة وهذا ما جعل القوات الانجليزية الغازية بعد معركة ابي طليح يستشعرون الخطر وتتضح امام ناظرهم حقيقة الامر . ونستدل في ذلك بما اورده الاستاذ ابو شامة من حديث جوليان سيمونز في كتابه ((ان هؤلاء ليس حملة بنادق الرمنجتون دقيقى التصويب ، ولكنهم المحاربون الذين افتدوا للقضاء علي الدخلاء)) وهذه شهادة واحد من بني جلدتهم . لذلك نجد ان معنويات هؤلاء الجنود بعد معركة ابو طليح والشبكات ووصولها الي جنوب الممتة . كانت معنويات منهاره تماما وهي العامل الحاسم والاهم في اكتساب المعارك وهي التي ان فقدت فمهما كان التسليح والعدد والإمداد فالفشل محتم لا محالة . وهذا هو السبب الرئيسي في رأينا لعدم تقدم القوات من القبة جنوب الممتة الي الخرطوم لتنفيذ المهمة الأساسية للحملة ذات التكاليف العالية والإعداد الدقيق والاختيار المميز .

بالنسبة لقوات الثوار ، ليس هنالك اعداد تم التكلّف فيه وليس هنالك انتقاء لابناء ملوك وأمرأ وعلية قوم ، وليس هنالك تمييز بين غني وفقير ، وبين اجير وأمير ، وليس هنالك ترقيات وحوافز تنتظر الفائزين ، ولا مرتبات تصرف ولا نياشين وأوسمة وترقيات . اذا ماهو الدافع ؟ ماهو العائد من وراء كل هذا الكد والتعب والهلاك والموت ؟ انه ليس أكثر من عقيدة امتلاءت بها الجوانح الان وشهادة تنتهي عندها الأزمان .

الخطط للطرفين :

تمثلت خطة قائد القوات الانجليزية في أن تكوين زريبة يحتمي بها حتى صباح اليوم التالي ويترك بها الأحمال والجمال وحراسه . التحرك في تشكيل مربع⁽⁹⁾ بداخله جمال الأحمال وحوله السواري والمشاة الراكبة . احتلال ابار أبي طليح . إحضار بقية القوة من الزريبة . بعد الشرب والتزود من ابار ابي طليح يندفع نحو الممتة لاحتلالها .
تمثلت خطة قائد الثوار في تقسيم القوة الي جماعات كالآتي :-

جماعة الطبول . مائة وخمسون فرد للخداع وزيادة الحماس . جماعة النيران . خمسمائة فرد للضرب علي الزريبة وقتل الجمال والافراد . قوات المناوشة ستمائة فرد لمناوشة المربع اثناء حركته وستر الانسحاب⁽¹⁰⁾ . قوة الاقتحام الرئيسية . ثلاثة الف وسبعمائة وخمسون فرد مقسمة الي خمسة مجموعات تتحرك بطرق مختلفة لمهاجمة العدو .

بالنسبة لخطة القوات الإنجليزية فقد صاحبها عدة أخطاء ساهمت في زياد الأفراد ووسائل الحمل ، ويمكننا تلخيصها في الآتي :

طريقة التقدم او الاقتراب من الآبار في ابي طليح لم يكن الأنسب بقوة بهذا الحجم والتسليح والرتل الإداري ومرور هذه القوة بمنطقة تتميز بالضيق في أماكن محددة يعطى الفرصة للجهة المقابلة في ان تستغل الخانق لوضع كمين يحالفه النجاح في أغلب الأحيان . وكان من الممكن الوصول الى الآبار تماماً والوصول الى النيل والتزود بالمياه وترك موضوع احتلال الآبار وحتى الممتة نفسها . وتنفيذ قصد القوة الأساسي بالوصول الى الخرطوم قبل زمن كافى مما يوقف او يعيق احتلال الخرطوم .

أسلوب التقدم⁽¹¹⁾ وحركة القوات عند الاصطدام بالقوة المقابلة كان يتبع أسلوب المربع في ذلك الزمان ويشبه حالياً أسلوب الصندوق لدينا وهو في شكل مربع ويسمى احبانا بالقلعة , وهو عبارة عن اصطفااف الجنود في شكل مربع متساوي الأضلاع في كل ضلع ثلاثة صفوف في غالب الأحيان ، كل صف داخل الصف الذي قبله والجنود قريبين من بعضهم البعض حتى لا تكون هنالك ثغرة . المدافع توضع في أماكن متعددة من المربع وأحياناً في المقدمة او الزوايا . وهو يستخدم ضد عدو لا يملك نيران أو لديه نيران ضعيفة . وقد اتبع الانجليز هذا الأسلوب في السودان بإعتباره الأنسب قد يكون هذا اعتقاداً صحيحاً في حالات مع أهمية ما ذكر أعلاه في أن تكون قوة نيران العدو ضعيفة وعدم السماح للمهاجم من الدخول الى الوسط مع الحفاظ على الذيل الإداري بما فيه الطبى مؤمناً داخل المربع ولكن يعاب على هذا المربع بطئ الحركة وحدوث ثغرات يمكن أن ينفذ منها المهاجم صاحب العزيمة الى داخل المربع . وبالتالي تفقد الأسلحة النارية لقوة المربع هذه الميزة مثلما ظهر لنا ذلك في تكتيك الأمير عثمان دقنة بشرق السودان ، وفي معركة أبي طليح . كما بين المهاجمين و المربع ، واستغل الثوار هذا الخطأ وبدأ هجومهم الكاسح تحت حماية الإنجليز وبالتالي تفادي نيران المربع حتى أقرب مسافة للمربع الإنجليزى .

مبيت القوات الإنجليزية في ارض القتل⁽¹²⁾ المعدة بواسطة المهاجم يعد عمل غير موفق حيث ادى ذلك إلى استمرار عمليات الإستنزاف بواسطة القوات المهاجمة ، وإحداث خسائر كبيرة في وسائل النقل - الجمال - وفي الأفراد بالإضافة الى العامل الهام وهو زيادة القوات المهاجمة بالدعم الذي وصلها بوصول الراية الخضراء بقيادة موسى ود الحلو . فإذا إستمرت القوات الإنجليزية في الحفاظ على قوة اندفاعها وهاجمت قوات الثوار في نفس اليوم . لكان ميزان تعادل القوة العددية للثوار . ثانياً لضغف قوة النيران لدى قوة الثوار التى كانت تتكون فقط من الجعليين بأسلحة نارية بسيطة وأفراد فيهم كثير من كبار السن و المعاقين والأطفال ميزة أخرى كانت القوات الإنجليزية ستتناها وهى رفع الروح المعنوية لقواتهم بهزيمة الثوار وبالوصول الى مكان الشرب في آبار أبي طليح ،عليه فقد أرتكب القائد الإنجليزي صاحب السمعة الطيبة والتجارب الكبيرة والمنصب الرفيع خطأ لا يغتفر بالنسبة له .

الرتل الإداري⁽¹³⁾ الكبير وسط القوات أدى لإعاقة الحركة والى زيادة الخسائر . مع أنه كان المنقذ الحقيقي لقوات المقدمة . التى تمكنت من انهاء المعركة ، حيث لم تستطيع قوات الثوار المهاجمة من الوصول الى مقدمة المربع رقم (1) بسبب عوائق الرتل الإداري في منتصف المربع بعد ان شتت تماسك قوات المربعين (2) و(3) ومؤخرة وأجناب المربع رقم (1) .

دخول قوات ما بين الكمين⁽¹⁴⁾ والقوات المهاجمة من الثوار كان من الأخطاء التكتيكية التي لا يفترض ان يسمح بها قائد القوة الإنجليزي ولكن يبدو انه لم يعطى القوات المقابلة القدر الكافي من الاعتبار في خطته وبالتالي تصرف بعدم المام بحجم التصميم والتخطيط لدى قيادة وأفراد القوة المقابلة ، وفي المقابل كان قائد الثوار سريع الاستغلال لهذا الخطأ وتحويل عامل المبادأة لصالحه ، وإذا لم يحدث هذا فإن خسائر القوات المهاجمة كانت ستكون كبيرة اذا قامت

بالهجوم من المسافة الكبيرة ما بين المربع ومكان انتظار قوات الكمين ، نسبة للقوة النارية العالية التي يتمتع بها المربع الإنجليزي .

يتضح من خلال سير المعركة عدم وجود خطة قوية قليلة العيوب من الجانب الإنجليزي، وذلك ناتج من الاستهانة بالقوات المقابلة وبالنظرة المتعالية التي كانت تتمتع بها الجيوش البريطانية في ذلك الزمان بحكم تكوينها وتنظيمها .وتجاربها وتدريبها والسمعة التي تميزت بها والدليل علي ذلك مجموعة الأخطاء التي حدثت اثناء المعركة وذكرناها بعالية بالإضافة لتصرفات بعض القادة الفردية من تعديل في شكل انفتاح القوات دون الرجوع لقائد القوة .

ما ذكرناه لا يعني عدم وجو ايجابيات لخطة القائد الانجليزي من هذه الايجابيات اولا استطاعت قوات مقدمة المربع رقم (1) علي الرغم من الزخم الذي حدث ان تفض الاشتباك وتحسم الأمر مما جعل القوات المهاجمة تنسحب ثم تعيد تنظيمها وتجمع بقية قواتها في شكل مربع جديد وتواصل سيرها حتى أبار أبي طليح ثانيا ،بحسب لقائد القوة التصميم والإصرار والتماسك لديه اذ تمكن بعد هذه المعركة التي تعتبر من الشراسة والمواجهة المباشرة من جمع شمل قواته وإعادة تنظيمها والتحرك بها نحو الآبار.

بالنسبة لخطة القوات الثائرة مع انها حققت القصد المعطى لها من تدمير جزء من قوات العدو وعدد كبير من وسائل الحمل ممثلة في الجمال - الرتل الإداري - إلا أنها صاحبها بعض الأخطاء .

تحليل عسكري (للخططين) من ناحية تكتيك عسكري :

أ. خطة الكمين كانت مكشوفة ومعلنة لقوات العدو قبل ان يكتمل وصول بقية القوات التي تعتبر القوة الرئيسية لتدمير العدو مما كان سيجعل الانتصار او الفوز لصالح قوات العدو ان هي نفذت عملية الهجوم في نهار اليوم الأول لوصولها وام تقم بعملية المبيت في الزريبة حتى صبيحة اليوم التالي ويبدو حسب رؤيتي بان ذلك ناتج من العقيدة وحجم الحماس والاندفاع والرغبة في تنفيذ عمل كبير من جانب قوات الجعليين دون حساب للمخاطر في مجابهة قوة تتمتع بقوة نيران كبيرة يمكن ان تحصد الجميع إضافة لما عرف سكان المنطقة الجعليين من عدم مهابة العدو ومهابة للعب والعار من حرائر القبائل.

ب. عدم الاستفادة من سائر الظلام وذلك بان يتم تنفيذ الهجوم ليلا او تنفيذ التقرب ليلا لقوات الاقتحام الرئيسية فإذا تم ذلك تكون القوات الثائرة قد سحبت ميزة الأسلحة النارية الكثيرة المتوفرة للعدو وبالدرجة الأولى مدافعة وقللت من حجم خسائر الهجوم نهارا مما أدى لان تتمكن القوات الانجليزية من ايقاف حركة محورين للقوات المهاجمة هما المحور يسار مجموعة الامير موسي الحلو اللذين كانا بقيادة الامير عبد الله برجوب والأمير احمد جفون وإيقافهم علي مسافة مائتي متر مربع وكانت الخسائر كبيرة في المحور الذي يقوده الامير محمد ود بلال والاهم من هذا كله هو تمكن مقدمة المربع رقم (1) من أحداث خسائر كبيرة وانتهاء المعركة بجعل القوات الثائرة تنسحب تحت نيران كثيفة من نيران المقدمة .

إدخال عدد كبير من القوات الثائرة الي وسط المربع بالإضافة إلي القوات الانجليزية المدمرة وكميات من الجمل الكثيرة الواقف منها والساقط ادي ذلك الي عدم تمكن القوات الثائرة من المناورة ووقف عائقا دون الوصول الي المقدمة المربع رقم(1) والتي كان لها فضل إنهاء المعركة . طغيان الحماس علي التكتيك الحربي كان السبب الرئيسي وراء الخسائر الكبيرة في قوات الأنصار كمان ان تقدم امراء قوات الأنصار لقيادة المعركة ادي الي فقدان السيطرة علي قوات الأنصار الكبيرة العدد وقليلة العتاد وهذا سر استشهاد اغلب قادة الأنصار في هذه المعركة. خطة قوات الثوار تميزت بعدة نقاط هامة وحيوية كانت الأساس في إعطاء النتائج الطيبة التي انتهت عليها المعركة ويمكننا إجمالها في النقاط التالية :-

الاستطلاع المستمر والحصول علي المعلومات عن تحركات قوات العدو ومداومة الاتصال بها قبل المعركة وإثناء المعركة وبعدها مما ادي الي ان تكون اتجاهات حركة القوات المعادية معروفة لدي قواتنا وبالتالي إمكانية تحديد مكان وزمان العمل العدائي تجاهها وهذا ما جعل القائد مالكا لزمان المبادرة وهي تمثل مبدأ حيوي وهام للعمليات التعرضية⁽¹⁵⁾.

العقيدة القوية الراسخة بسبب الدين وعدالة القضية المتمثلة في صد غزاة هدفهم احتلال الأرض والعرض جعلت الدافع للقتال يكون من القوة بحيث لا مجال للتفكير في الموت او اي شئ خلافة وبما ان هذا الموت يعد شهادة في سبيل الله يترتب عليها الفوز بنعيم الآخرة ادي ذلك لان تكون الروح المعنوية احدي العوامل الهامة والمبادئ الأساسية للحرب وكما ذكرت كانت هذه احدي المميزات والخصائص الهامة التي ادت الي نجاح المعارك التي خاضها الثوار في ابي طليح او الشبكات او شيكان أو الجزيرة أبا .

استغلال الفرص او امتلاك المبادرة⁽¹⁶⁾ ان الفرص التي سنحت بأخطاء في خطة العدو تم استثمارها بصورة ممتازة من جانب قادة القوات الثائرة ونذكر مثالين لذلك أولاً: عندما اخطأ قائد قوات العدو باتخاذ قرار المبيت داخل المنطقة التي تم إيقافه فيها في منطقة ابي طليح قبل وصوله للآبار تم استغلال هذا الخطأ بواسطة الثوار مباشرة في تنفيذ هدفهم الذي تمثل في قتل اكبر عدد من جمال حمل تموين القتال اي ما يمثل الرتل الإداري ونجحوا في ذلك إضافة للخسائر الأخرى في الافراد والخيول واستمر ذلك العمل في صبيحة اليوم التالي وهذا ما يعرف بامتلاك المبادرة حيث تمكنت قوات الثوار من جعل قائد قوات العدو يفكر في التحرك من مكانه بتشكيل الصندوق نسبة لتأكده من الهزيمة اذا استمر الحال كذلك فترة طويلة حيث يستمر الاستنزاف لقواته وتنتهي مياه الشرب وبالتالي يكون الخطر من جانبيين الرصاص والعطش وحتى عندما اتخذ قرار الحركة وكون مربعة وبدا في تحركه ظلت المبادرة بيد القوات الثائرة بدليل انه كان يتوقف هجومها عليه في كل لحظة الي ان هاجمته قوات الثوار المثال الثاني كان عندما استغل القائد موسي ود حلو فرصة دخول عناصر من قوات العدو بين مربع العدو والقوات الثائرة بدون علمهم وسريعا ما استغل موسي محمد الحلو ذلك وهجم علي قوات العدو مستغلا هروب عناصر العدو كساتر بينه وبين الأسلحة المصوبة عليه وهي ذات كثافة نيران عالية مكن هذا الاستغلال

للظرف المناسب من تحرك قوات الثوار حتى مسافة مائتين متر فقط من مربع العدو وبعدها كان الفاصل صغيراً بحيث تم اقتحام مربع العدو رقم (2) ثم رقم (3) ثم رقم (1) وإذا لم يستغل الأمير موسي هذه الفرصة بطريقة ممتازة لكانت خسائر القوات الثائرة لقطع هذه المسافة التي تبلغ ثمانمائة متر إلى المربع الإنجليزي هي سحق قوات الثوار تماماً بواسطة مدافع العدو الرشاشة وهذا أيضاً امتلاك لعامل المبادأة ثم استغلال النجاح بصورة حققت كثير من النجاح والمفاجأة . مرونة الخطة بحيث يستطيع القائد أن يغير أو يعدل الخطة خلال سير المعركة دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير قصده وهذا مما أدى إلى نجاح الخطط وفي حالة خطة الثوار كانت الخطة مرنة بحيث أنه يمكن تحقيق القصد في كلا الحالتين للعدو وهما إذا دفع العدو متخذاً الزريبة كموقع دفاعي يحتمي خلفه فإن استمرار عمليات الاستنزاف ستؤدي في النهاية إلى تدميره باقتناص دوابه ورجاله أو موته عطشا أما إذا تحرك العدو متخذاً طريقة إلى الإبار فيكون بذلك قد خرج من استحكاماته ⁽¹⁷⁾ ويصير عرضة للهجوم عليه وهذا ما حدث أيضاً هنالك مرونة أخرى للخطة تمثلت في وضع الاعتبار اللازم لتغطية طرق تقرب العدو للآبار فإذا سلك الطريق المعروفة والآبار المعروفة فإن الخطة وضعت لتغطية ذلك أما إذا سلك الطريق الأخر للآبار وهو يختلف عن الطريق الأول فلقد تضمنت خطة الثوار ذلك .

التنظيم الجيد لقوات الثوار وللمجموعات الهاجمة فلقد ظهر من خلال المراجع المستندة على الوثائق الإنجليزية نفسها بأن مجموعات المقاتلين الثائرة كانت تتميز بتنظيم جيد خاصة أثناء عملية تحركها للهجوم مما يدخل الخوف في مشاهدي عملية الهجوم من الطرف المعادي أو المقابل وكان منظر يتمثل في شكل سهم ⁽¹⁸⁾ يتقدمهم أو قائد المجموعة وهو الأمير حاملاً الراية يليه الفرسان في شكل طابور يليهم من حملة الأسلحة النارية والبيضاء ويكمل هذا التنظيم بالحركة السريعة والخفيفة والتي تتميز بالقوة والعزيمة والإصرار . الدروس العسكرية المستفادة من معركة أبو طليح :

تحديد القصد على القائد علي أن يحدد قصده بوضوح للمرؤوسين وأن لا يكون أكثر من واحداً محدداً الأهداف وأن يستصحب ذلك تصميم المرؤوسين علي بلوغهم الهدف في الزمن المحدد . وحدة القيادة حتى لا يظهر اختلاف الرأي وبالتالي عدم التنسيق مما يؤدي إلى ضياع الجهود وإهدار الطاقات المادية والبشرية ولنا أمثلة في الوقت الراهن متعددة .

التدريب : وخاصة التدريب ليلاً فإذا كانت قوات المجاهدين ذات تدريب ليلاً ونهاراً لما كانت الخسائر بهذا العدد وينطبق نفس الأمر على العمليات الحالية بمناطق العمليات .

العقيدة : أهمية استصحاب الإعداد العسكري بعقيدة تملا الجوانح وبالتالي يظهر الدافع المؤدي لعزيمة قوية تجعل من الروح المعنوية للمقاتل مالا يمكن وصفه بكلمات ولكن يجب المقارنة ما بين ذلك والاندفاع والحماس بدون تفهم لتنفيذ المهمة والهدف الرئيسي من العملية وهو النصر أولاً .

التخطيط المسبق المرتكز على المعرفة الكافية للمقاتل لمعدته وقوته ، تسليحه ، تنظيمه ، تعبئته ، مقدراته ، تصميمه على القتال ، قاداته ، نقاط ضعفه ، ونقاط قوته وأهدافه ودوافعه وهذا ما كان يجهله القائد الإنجليزي عن المجاهدين .

دراسة عامل الأرض : إي تحليل منطقة العمليات مما يجعل من تقدير الموقف ⁽¹⁹⁾ للقائد

يستند علي أرضية قوية تؤدي لنجاح خطته وبدون هذا العامل لا توجد خطة .
أهمية المعلومة وبالتالي أهمية الاستخبارات وأهمية عناصر الاستعراض مع الاهتمام بسرعة وصول المعلومة في الزمان والمكان المحددين.

أهمية مقدرة القادة علي ابتداع طوابير جديدة للحركة والمناورة والقتال حسب ما يقتضيه الموقف وعدم التجمد عند المعلوم لديهم فقط والاستفادة من المصادر المتيسرة وهذا ما وضع جليا من فشل تشكيل الصندوق المستخدم بواسطة القائد الانجليزي خاصة وان ضمنه القول الإداري⁽²⁰⁾ تم تدميره دون ان يستطيع القائد القيام بعمل مقابل مرونة الخطط بحيث تستطيع الخطة ان تستوعب كل المفاجآت المحتملة الحدوث دون ان يؤدي ذلك الي فشلها أو تغيير القصد النهائي منها وهذا عامل هام حالياً في ظل نقص المعلومة عن العدو والأرض حيث تستطيع مرونة الخطة ان تعالج ذلك بنسبة كبيرة .
ضرورة الاهتمام بعمليات الخداع والتستر مع ملاحظة عدم المبالغة في ذلك لان المبالغة تؤدي الي كشف خطة الخداع فكما كانت خطة الخداع بسيطة كلما كانت أكثر قابلية للنجاح ثم استخدام الخداع في عدة اماكن من الجانبين في معركة ابي طليح .

الخاتمة :

معركة أبو طليح تعتبر أهم المعارك التي خاضتها الثورة المهدية ضد الإنجليز وتعتبر عملية عسكرية حاسمة لموقف أدى لتحرير الخرطوم ومقتل غردون . الانتصار الذي أتي كان قيمته عقيدة قتالية التف حولها الألف الأنصار من كل أنحاء السودان .

النتائج :

- نستنتج من معركة أبو طليح الروح الوطنية التي كانت تسود أهل السودان من خلال الملمح لاشتراك قوات المهدي القادمة من الراية الخضراء والانضمام لقوات ود سعد بالمتمة .
- نستنتج من معركة ابو طليح توحيد العقيدة القتالية من المقاتلين تحت راية لا اله الا الله وأشهد ان محمد رسول الله كانت داعم معنوي للمقاتلين .
- نستنتج من معركة أبو طليح عدم معرفة قوات العدو الانجليزية لإنقاذ غردون لطبوغرافية المنطقة وطبيعتها انهكت القوة مما سبب ضعف في الروح المعنوية .
- نستنتج من معركة أبو طليح بأن التخطيط المسبق لإستراتيجية المهدي بتعطيل ومقاومة خط حملة إنقاذ غردون قاد الي اسقاط الخرطوم مبكراً قبل وصول الحملة .
- نستنتج من معركة ابو طليح ان العزيمة و الارادة و التخطيط هما وسائل النجاح و الانتصار .

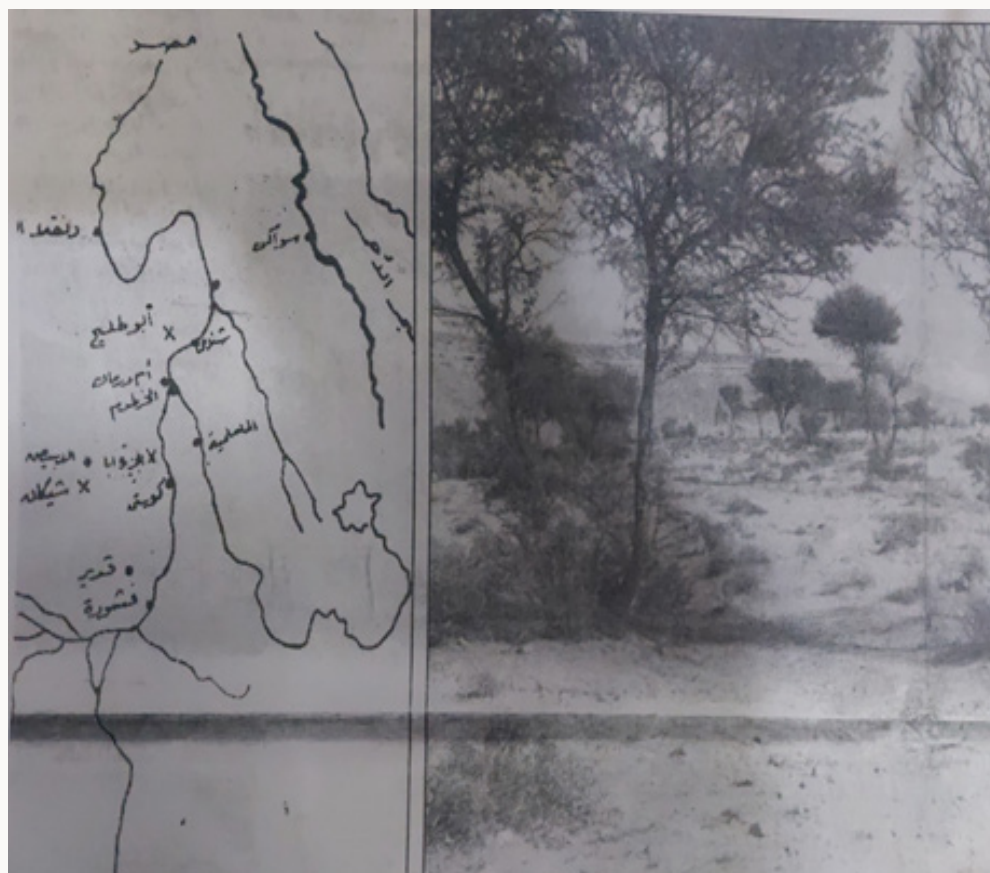
التوصيات :

- يجب أن نكتب معركة أبو طليح في كتاب تشمل كل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.
- إعداد معركة أبو طليح في فلم وثائقي يبيث من خلال كل الوسائط الإعلامية .
- يجب تسليط الضوء علي معركة أبو طليح ليتعرف جيل اليوم علي مجاهدات السلف الصالح في تعطيل حملة إنقاذ غردون .

طبوغرافية منطقة أبوطليح - شمال غرب الممتمة - ولاية نهر النيل



خريطة أبوطليح



الهوامش:

- (1) المستوى التعبوي : هو المستوى التكتيكي .
- (2) المستوى الميداني : هو مسرح العمليات .
- (3) طابور الصحراء : تشكيل اقتضته الظروف بعد تعثر سير الحملة
- (4) يعني تسليح اللواء تسليح بندق فقط
- (5) الهجانه وحدات عسكرية مدربة علي ركوب الهجن .
- (6) لواء الهجانه الثقيل ، تسليح اللواء ثقيل يعني مدعوم بأسلحة مساندة
- (7) تعادل القوة : المقارنة بين القوتين .
- (8) العقيدة القوية : عسكرياً تسمى العقيدة القتالية .
- (9) تشكيل المربع : هو تشكيل الصندوق .
- (10) ستر الانسحاب : تغطية الانسحاب .
- (11) التقدم : وجه من اوجه الحرب الاربع هي (تقدم ، هجوم ، دفاع ، انسحاب) .
- (12) ارض القتل : مسرح العملية او مكان المعركة .
- (13) الرتل الإداري : المئون من الذخائر والأطعمة وغيرها .
- (14) الكمين : موقع اختفاء القوات تحت غطاء او ساتر .
- (15) العمليات التعرضية : هي العمليات الدفاعية .
- (16) المبادأة : النجاح الأولي ويعد انتصار .
- (17) استحكاماته : موقع الدفاع .
- (18) شكل سهم : نوع من أنواع تنظيم القتال ألان يدرس في علم التكتيك ويسمي تشكيل راس سهم .
- (19) تقدير الموقف : هو الخطة المفصلة للقائد .
- (20) القول الإداري : هو الرتل الإداري

المصادر والمراجع :

- (1) عبد المحمود أبو شامه (1986) من آبا إلي تسلهاي المطبعة العسكرية أم درمان.
- (2) الطيب أبشر الطيب (2006) الوثائق والأرشيف مطبعة جامعة الخرطوم .
- (3) عمر النور أحمد (2000) أبو طليح 1885 مطبعة الشهيد عثمان عمر الخرطوم بحري .
- (4) محمد عبد القادر نصر الدين (2008) الممالك القديمة والحروب العسكرية المطبعة العسكرية أم درمان .
- (5) عبد الله الطيب (2000) ورقة عن أبو طليح نادي الضباط .

ملاح من مشاركة المرأة السودانية في الإستقلال 1956م

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر

د. إخلاص مكاي محمد علي

مستخلص:

تهدف هذه الورقة لإبراز دور المرأة السودانية في الإستقلال ولذلك كان لابد من التعرض لأوضاع وظروف السودان والمجتمع السوداني في فترات ما قبل الإستقلال في 1956/1/1م. أشارت الورقة إلي أن المصادر السابقة لم تحدثنا عن حركة المرأة ونشاطها في الحياة العامة إلا بعض المعلومات الشحيحة التي وردت في مصادر كتبت عن سلطنة سنار ووردت أسماء لبعض النساء في معلومات تخص الشيوخ والفقهاء والأولياء. أوردت الورقة نماذج لما قامت به بعض النساء وقد اشتهرن بذلك لأنهن برزن في مجال الفروسية والشجاعة وشعر الحماسة. تناولت الورقة إسهامات المرأة في الثورات الحديثة والعمل الوطني والنضال ضد الإستعمار وفي المقاومة التي شملت العمل الثقافي والتوعوي. تعرضت الورقة لتنظيمات نسائية بدأت منذ إرهابات الإستقلال تمثلت في الجمعيات الطوعية والثقافية والتي ساندت حركات التحرر من الإستعمار بشتي الطرق كالعدم المادي والمعنوي. تناولت الورقة خطاب الإستقلال للوزراء والرؤساء منذ أول خطاب بإعلان الإستقلال وحتى الحكومات المتعاقبة والتي اتضح أنها لم تذكر مشاركة المرأة في الإستقلال. ختمت الورقة بالنتائج وبعض التوصيات.

Features of the Sudanese participation in the independence of 1956 AD

Dr. Ekhlals M. Muhammad Ali

Abstract:

This paper aims to highlight the role of Sudanese women in independence, and therefore it was necessary to address the conditions and conditions of Sudan and Sudanese society in the pre-independence periods on 1956/1/. Which were mentioned in sources written about the Sultanate of Sennar, and names of some women were mentioned in information related to sheikhs, jurists, and saints. The paper presented examples of what some women did, and they were famous for that

because they emerged in the field of chivalry, courage, and poetry of enthusiasm. The paper dealt with women's contributions to modern revolutions, patriotic action, and the struggle against Colonialism and in the resistance, which included cultural and educational work. The paper dealt with women's organizations that began since the precursors of independence. It was represented in the voluntary and cultural associations that supported the liberation movements from colonialism in various ways, such as material and moral support. The paper dealt with the independence speech of the ministers and presidents since the first speech announcing independence and even the successive governments, which did not mention the participation of women in the independence. The paper concluded with the results and some recommendations.

مقدمة:

لم تذكر المصادر دور ونشاط المرأة السودانية في الحياة العامة إلا قليلا، وما ورد في كتاب (الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والشعراء في السودان، لمحمد النور بن ضيف الله) لا يعدو أن يكون عابرا. والطبقات هو الكتاب الذي أرخ للحياة الدينية والثقافية والاجتماعية في سلطنة سنار في الفترة من 1504 - 1821م. وقد ورد إسم (29) امرأة في هذا الكتاب إلا أن مؤلفه لم يترجم لإحداهن رغم المكانة الدينية التي وصلت إليها بعضهن والأدوار التي لعبتها في الحياة العامة، فالمرأة زوجة الشيخ وابنته وأخته وأمه. واشتهر الشيوخ بذلك فرابعة بنت الشيخ صغبرون وست الدار بنت الشيخ عبد الرحمن حمدتو ووالدة الشيخ عبد الرحمن إسيد، وبرة بنت الشيخ الزين وهي أم مدني الحجر وأبوعاقلة هو حجر وكني بإبنته.

المرأة والمقاومة الوطنية:

بالنسبة لعدم تعرض المصادر لأخبار المرأة وأنشطتها فإن الطيب محمد الطيب⁽¹⁾ يري أن إخفاء المؤرخ أو الكاتب لإختيار النساء هو من باب الإعزاز، وما وصل من أخبارهن لأنهن كن من النابغات. ويبدو أن المذكرات من البارزات في المجتمع مما فرض ذكرهن، وربما كان هناك عدد من النساء ممن لعبن دورا في المجتمع ولكن لم يذكر ذلك الدور باعتباره أمراً عادياً في ذلك الزمن.

لقد برزت بعض النساء في أنشطة وأعمال واضحة (2) فالشيخة أمونة بت قدال تملك الأرض وتزرع القطن وتغزله النساء يشارك في ذلك، تلميذات وتلاميذها في خلاويها، وتحضر النساجين من الجبلين والمتممة لصناعة القماش وتوزع الكساء لتلاميذها وتلميذاتها.

كذلك عملت المرأة في مجال التجارة وخدمة الشيوخ فالفقيرة عائشة بت ولد قдал
جلست للتدريس ولها مدرسة كُتاب وورد في الطبقات أن الشيخ خوجلي بدأ الكتاب عندها. أما
الملكة كجبي فهي تمثل بقية من نفود المرأة السياسي في شمال السودان وكان قد تزوجها الشيخ
إدريس بن الشيخ عبد الرحمن بن جابر أصرت علي زوجها أن تكون الخلوة والقراءة في بيتها مما
جعل التلاميذ يرفضون وتفرقوا علي خلاوي أخرى، فكانت النتيجة خراب الخلوة.

في مجال تعليم البنات والأولاد يذكر الطبقات (4) الفقيرة أمونة بت عبود التي بدأت
بتعلم أسرتها ثم القرى المجاورة، وجعلت للدارسين سكناً واستعانت بمعلمين من خارج المنطقة
وشاعت سمعتها خارج السودان، وعرفها حجاج غربي أفريقيا إذ كانت خلاويها مأوي وملاذ لهم
في رحلة الحج (5).

وفي مجال الفروسية والحرب قالت المرأة شعر الحماسة وامتدحت الشجاعة ، كما كانت
مقاتلة ، فهذه شعبة المرغوباية تشجع الجيوش وتقاتل بجانب أهلها ، وكانت فارسة قبيلتها
وزعيمة أهلها ، ورد إسماها في الطبقات عرضا عندما قالت تمدح أهلها :

أولاد أب زمام	البركبوا الأشفر
الناس من هلاكيتهن	بعيد تنصر

وقالت:

فمرتاك حافلن	لاي سروجــــن دم
--------------	------------------

مومدحت الفارس الشجاع ولد أم بريق رغم أنه كان من أعدائها يقاتل
ضد أهلها فاعجبت بشجاعته وهو يقاتل ممسكاً ببطنه يسند إمعائه وهو
يستمر في القتال ويصيح وباروك يا يشهود ويا باروك يا شهود . فقالت له :

شــــهدن عليك	شــــهدن عليك
يا الولــــد المتل	حب العروسي عينيـك
لا يكيــــك وجاهة	ولا يكابــــر بيـك
يالفرــــاح بطونك	فوق جرايــــد إيديك

عرفت شعبة يشجاعتها وعدم خوفها ومهابتها للحكام ، فعندما أرسل إليها الملك عجيب
جباة الضرائب ، رفضت أن تدفع وضربت نقارة الحرب وخاطبت الملك عجيب قائلة (6):

نقروها نقارة البركات

عرضوا ولاد كمال

جوها الدبس قتات

قول للمك عجيب ما عندي ليك آيات

بلا دق ود بقيع الدكري الكفات

لقد شهد السودان مقاومة الجيش التركي - المصري الذي غزا السودان في العام 1821م

فوجد مقاومة في معظم مدن السودان من القبائل ومن الأفراد (7)، تمرد الجهادية السود في كسلا عام 1864-1865م. ففي منطقة الشايقية بشمال السودان برزت مهيرة بت عبود أخت الفقيرة أمونة لتقف في وجه الغزو التركي - المصري في معركة كورتي عام 1821م وعرفت بشجاعته وشعرها الحماسي.

أما في فترة المهديّة رغم التحفظات التي كانت حول المرأة فقد ظهرت شجاعة رابحة الكنانية وهي تطوي المسافات لإبلاغ الإمام المهدي بخبر تحرك حملة راشد بك أيمن التي تم التكنم عليها لمباغته المهدي وجيشه والقضاء عليه وعلي الثورة، فكانت رمزاً للشجاعة والتضحية والثورة والمشاركة الفعلية والحية . لقد كان ذلك في بداية الثورة المسلحة.

أما فترة حصار الخرطوم في 1885م فقد أعدت الحاجة ست البنات بت سلمان (8) زاد المجاهد وهي في مدينة القطينة وحملته علي ظهور الجمال ووصلت الخرطوم ووزعت زاد المجاهد علي الجنود المحاصرين للخرطوم ، وقاتلت جنبا إلي جنب مع الأنصار حتي وجدت مستشهدة وهي تحمل سيفها المضرج بدماء الأعداء ، وسميت ست البنات أم سيف.

المرأة ودورها في العمل الوطني والثورات الحديثة:

بعد أن غزا الجيش الإنجليزي - المصري السودان عام 1898م وكانت البلاد مثخنة بجراح معركة كرري التي سقط فيها عشرات الآلاف من الشهداء والجرحي ، والأسري الذين تم ترحيلهم إلي زنجبار ، خرجت النساء بعد إستباحة المدينة لثلاثة أيام خرجت لتفقد أرض المعركة لعل هناك جريح يسعف أو شهيد يوارى الثرى.

خلال تلك الظروف القاسية لم تظهر مقاومة منظمة نسبة للوضع الذي تعبشه البلاد ، ولكن كانت هناك بعض الإنتفاضات كثورة عبد القادر ود حبوب ، وثورة أبو جيميزة والسُحيني لكنها لم تكن مقاومة منظمة يمكن الإعتماد عليها في الحراك الشعبي الثوري.

لقد بدأت المقاومة المنظمة عام 1921م بتأسيس عدد من الجمعيات كان أولها جمعية الإتحاد السوداني والتي كانت تنتهج أسلوب السرية والسلمية في آن واحد ، ثم تكونت جمعية اللواء الأبيض عام 1924م وكانت سافرة في مواجهة الإنجليز لم تكن المرأة عضواً في أي من الجمعيتين لكنها ساندت المناضلين والشوار بتأمين الإجتماعات السرية وتوزيع المنشورات والإحتفاظ بها وتأمينها، وجسدت العازة محمد عبد الله ود الدنقلوي هذه المشاركة ولم تكن العازة في البداية قد فكرت في المشاركة الفعلية وروت (9) أن والدتها فاطمة محمد حسن صادفت مرور مظاهرة أمام منزلها وزغردت تحية للمتظاهرين مما جعل العازة تنضم للمظاهرات التي كانت تهتف بإسم زوجها علي عبد اللطيف . وكان موقف والده العازة جريئاً وواضحاً فهي قد عاشت سنوات من الثورة المهديّة و الضر البريطاني.

بجانب مشاركة العازة في المظاهرات كانت مهمتها حفظ وثائق ومنشورات الثورة والإتصال

مع عبيد حاج الأمين⁽¹⁰⁾ وبذلك كانت العازة أول امرأة سودانية تشارك في النشاط السياسي بالمعني الحديث ، وقد شجعته وحفزتها والدتها فاطمة محمد الحسن . وعندما تم اعتقال وسجن علي عبد اللطيف في السودان ثم بعد ذلك تم تحويله إلى القاهرة في المستشفى العسكري ثم رُحِّل إلى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية ، قامت العازة بزيارته في المستشفى ومعها محمد حسين ربحان ولاحظا أن حالة علي طبيعية فكتبت العازة لوزير الحرية المصري بغرض السماح لزوجها بمغادرة المستشفى ليعيش مستقلاً بنفسه وقالت لم نر من علي أفندي أي مرض كما يقولون سوي أنه يعتقد أنه في سجن وقد اختلف السجن في شيء قليل من سجن السودان . رفض الطلب علي أساس أن حالته الصحية لا تسمح . وهكذا لازمت المناضلة العازة زوجها المناضل الثائر حتي آخر أيامه.

لقد شهد عام 1938م ميلاد مؤتمر الخريجين ، ولم تكن المرأة عضوا فيه بسبب التقاليد . ومشاركة المرأة ومساندتها كانت بالتبرعات المالية والعينية وتنظيم الأسواق الخيرية التي يقيمها المؤتمر لصالح مال التعليم الأهلي ودعم وفود السفر للخارج من أجل الإستقلال.

في عام 1946م تم اتفاق بين رئيس الوزراء المصري صدقي باشا ووزير خارجية بريطانيا إيرنست بيفن وسمي هذا الإتفاق ببرتوكول صدقي بيفن . وبعد عودته من لندن أعلن صدقي باشا وفقا للبرتوكول أعلن للمصريين أنه جلب لهم السيادة علي السودان في المفاوضات مع بريطانيا (11) مما أثار غضب السودانيين وخرجوا للشوارع مظاهرين ضد البرتوكول واحتجاجاً علي تصريح صدقي باشا ولم ينجح البرتوكول وأبطله الإمام عبد الرحمن المهدي ورفضه الإستقاليون وتم إرسال وفد في قضية استقلال السودان إلي الأمم المتحدة لطرح قضية السودان ، وكانت هناك صعوبات مالية تقف أمام سفر الوفد. وفيما بعد تم تدبير الأمر وسافر الوفد وكان للمرأة مساهمة في ذلك لم يسلط عليها الضوء، ظهرت امرأة لها حس وطني وفني فألفت وأخرجت مسرحية بعنوان (سفر الوفد) وخصصت دخلها لصالح سفر الوفد (12) وبذلك أسهمت في دعم الحراك الوطني بالمساهمة المادية والمعنوية.

في عام 1948م كان نادي الخريجين يقوم بتنظيم الليالي السياسية في عدد من مدن البلاد. وكان أشهر تلك الليالي التي أقيمت في 13 نوفمبر 1948م بنادي الخريجين بأم درمان، تحدث فيها حماد توفيق وعبد الرحمن حمزة سكرتير المؤتمر ، ومبارك زروق ، والطيب محمد خير وتحدثت خالدة زاهر الطالبة بمدرسة الطب، وقالت في كلمتها : لا عجب أن تشارك الفتاة مع الرجال في الجهاد في سبيل الحرية ، فذلك أمر طبيعي . وفي نهاية كلمتها هتفت يسقط الإستعمار ورددت الحشود معها الهتاف. وتم اعتقالها بعد المظاهرات مباشرة (13).

فيما بعد ظهرت التنظيمات النسائية ممثلة في رابطة الفتيات المثقفات بأم درمان ، وجمعية ترقية المرأة عام 1914م التي كانت رئيستها السيدة رحمة عبد الله جاد الله (14) وكذلك الجمعيات الخيرية في عدة مدن . ثم ظهر تنظيم الإتحاد النسائي عام 1952م وساهمت

المرأة في كل تلك الجمعيات في التوعية ، وكان مدخل المرأة في هذه الأنشطة التعليم والعمل، لقد أعقب مؤتمر الخريجين قيام الأحزاب السياسية واشتدت الحركة الوطنية بتكوين الأحزاب السياسية ، لكن لم تكن المرأة عضواً في أي حزب عدا الجبهة المعادية للإستعمار أول تنظيم يضم في عضويته امرأة ثم الحزب الجمهوري ، ثم الإخوان المسلمين . ولكن تلك العضوية لم تكن علناً في الظاهر بل كانت في السر . ولذلك لم يكن للمرأة دور سياسي واضح في تلك الأحزاب⁽¹⁵⁾.

المرأة في خطاب الإستقلال:

ألقي السيد إسماعيل الأزهرى رئيس مجلس الوزراء في حفل رفع علم السودان بالقصر الجمهوري في الأول من يناير 1956م خطاب الإستقلال ، تحدث فيه عن وحدة الأمة وجهاد الشعب والعلاقة مع مصر . وعاهد الشعب في خطابه أن لا يربطه بأحلاف أو إتفاقيات و أن يعمل علي صيانة الإستقلال.⁽¹⁶⁾

وفي عام 1957م وفي نفس المناسبة خاطب السيد عبد الله بك خليل رئيس الوزراء متحدثاً عن مستوي المعيشة وفتح أبواب الثقافة ، والعمل والصحة ، والخدمة المدنية ، والقومية العربية. أعقب ذلك حكومة الفريق إبراهيم عبود العسكرية عام 1959م جاءت خطاباته عن ثورته وبرامجها. لقد تعاقبت الحكومات مدنية وعسكرية حتي الإنقاذ. لم يحدث أن ذكر أي من أولئك رؤساء مجلس الوزراء أو مجلس السيادة . لم يحدث أن ذكروا دور المرأة في الإستقلال أو مشاركتها في المقاومة الوطنية أو مساهمتها في النشاط الثوري . وفي ذلك إجحاف في حق المرأة مما يستدعي قيام المرأة بنشاط ثقافي مكثف من أجل توضيح أدوارها التاريخية للأجيال الحالية والقادمة خاصة أن الجيل الحالي أصبح علي درجة عالية من الوعي يدل علي ذلك ما تقوم به الكنداكات مع رصفائهن من الشباب.

النتائج :

توصلت الورقة للنتائج الآتية:-

- ساهمت المرأة منذ التاريخ المبكر في كل الأنشطة الإجتماعية والثقافية في المجتمع السوداني.
- شاركت المرأة في كل مقاومة ضد الغزاة بما في ذلك الحروب والقتال.
- كانت المرأة سنداً للرجل دائماً..
- اتضح أن المرأة لم تكن عضواً في أي تنظيم سياسي أو حزبي من التنظيمات التي تكونت ضد الإستعمار الإنجليزي.

- من خلال خطاب الإستقلال كان إهتمام الحكام ببرامج حكوماتهم ولم يكن هناك إشارة لما قامت به المرأة.
- عدم الإهتمام بالتوثيق لأنشطة المرأة أضاع كثيرا من مشاركتها.
- وأخيراً توصي الورقة بتكوين جسم يعمل علي توثيق أنشطة المرأة في كل المجالات . وما يوجد الآن من محاولات لا بد من تجميعه تحت مظلة واحدة.

الهوامش:

- (1) الطيب محمد الطيب : المسيد - ص 33
- (2) محمد النور بن ضيف الله: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين في السودان، ص 69.
- (3) الطبقات، ص 188. ص 174.
- (4) إخلاص مكايي محمد علي: وضع المرأة في سلطنة الفونج ورقة قدمت لمؤتمر الحكم والإدارة في الدولة السنارية ، 2 - 4 أغسطس 2017م
- (5) الطيب محمد الطيب ، دوباي ، ص 76-77.
- (6) محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الإفتراء ، أورد تفاصيل لأنواع مقاومة سودانية للفرد.
- (7) د.و.ق: مجموعة غير مصنفة.
- (8) يوشيكو كوريتا: علي عبد اللطيف وثورة 1924م، ص 79.
- (9) المصدر نفسه، ص 99.
- (10) أحمد المهدي: الإمام عبد الرحمن المهدي ، رؤية جديدة للحركة الوطنية السودانية ، ص 80.
- (11) لم تحصل الباحثة علي تفاصيل عن مؤلفة المسرحية فاطمة محمد عبد الله بسبب إضراب العاملين بدار الوثائق القومية عن العمل.
- (12) صحيفة الرأي العام ، مارس 1956م عدد خاص عن الإستقلال.
- (13) نفيسة أحمد الأمين: ملاح من الحركة النسائية في نصف قرن ، وكذلك أحمد المهدي ، ص 209.

التعدين العشوائي للذهب وأثره على المواقع الأثرية (إقليم الشلال الثالث أنموذجا)

أستاذ مشارك - قسم الآثار - جامعة الخرطوم

د. عبدالرحمن إبراهيم سعيد علي

مستخلص:

عرف الذهب في العصور القديمة من خلال الموجودات الأثرية التي وجدت في مقابر الملوك والملكات أو في غيرها من المواقع. وارتبط الذهب بالسودان منذ أقدم العصور، وهو من ضمن أقدم الأسماء التي أطلقت على السودان قديما «النوبة» والتي تعني الذهب. وقد شكل الذهب أحد المحاور الرئيسية في النصوص القديمة المتعلقة بتاريخ وادي النيل، ومن أقدم الاشارات الدالة على التنقيب عن الذهب في السودان والتي تعود الى فترة المملكة المصرية الوسطى في العام 1900 ق.م، واستمر الذهب بعد ذلك يشكل أحد أهم الصادرات في كل فتراته التاريخية وحتى الان. ونتيجة لذلك ولغياب الدراسات والمنهجية العلمية السليمة، توغل منقبو الذهب علي كل المساحات في السودان. ويعتبر اقليم الشلال الثالث ذو الخصائص البيئية والاثارية والثقافية المتميزة من اكثر المناطق التي تعرضت لعمليات دمار وخراب للمواقع الأثرية من قبل منقبو الذهب، وظهرت عمليات سرقة وتجارة الآثار وغيرها من الجرائم. وسوف نسلط الضوء من خلال الدراسة هذه علي عمليات الخراب والدمار الذي تم وكيفية الحلول والمعالجة.

Random mining of gold and it's impact on Archaeological sites: The third cataract region as model

Abdelrahman Ibrahim Said Ali

Abstract:

Gold was known in the ancient periods through archaeological findings that were found in the graves of kings and queens or in other locations. It is among the oldest names given to Sudan in the past, "Nubia", which means gold. Among the oldest indications of gold exploration in Sudan, which date back to the period of the Middle Kingdom of Egypt in 1900 BC. As a result of the absence of sound scientific methodology and studies, gold prospectors penetrated all areas in Sudan. The third cataract region is considered one of the areas most affected by the destruction of archaeological sites. We will shed light on the processes of destruction that have occurred and how to solve and deal with them.

مقدمة:

نسبة لإكتشاف بعض المناجم والمواقع المنتجة للذهب في مناطق مختلفة من السودان خاصة في شماله، استشرت حُمى التنقيب العشوائي عن الذهب (سرطان الآثار) في العديد من المناطق فطالت حتى المواقع الأثرية نفسها، لاسيما وأن الصدفة نفسها لعبت دورها مع بعض المعدنين (الدهابة) حيث أكتشفوا بعض التماثيل الأثرية مما زاد حجم المأساة، فصارت المواقع الأثرية هي المستهدف الأول في غياب الوعي بأهمية الآثار والموروث الثقافي، وكذلك عدم تفعيل دور القانون. وقد لعب التعدين العشوائي للذهب بشقيه (الأهلي والحكومي) - وهو التنقيب الذي يقوم به المواطنين سواء كانوا أفراداً أو جماعات خارج الدوائر الرسمية، سواء كان هذا التنقيب يقوم به أفراد أو شركات أو حتي مؤسسات - دوراً كبيراً في تدمير العديد من المواقع الأثرية وتغيير مظهر الأرض الطبيعي في المنطقة. فقد منحت الحكومة مجموعة من الشركات الإذن بتراخيص لإجراء عمليات تنقيب عن الذهب بالمنطقة، ومجموعات أخرى تعمل دون رقيب أو حتي اذن من الجهات الرسمية (الحكومة)، مما أدى إلى إزدياد حجم الحراك السكاني في الآونة الأخيرة، وأصبح للتعدين العشوائي عن الذهب ونهب المواقع الأثرية فلكلور خاص وقصص شعبية في المنطقة تشجع على الإستمرار في هذا العمل. والذي قاد بدوره إلى ضياع كمية كبيرة من الإرث الثقافي بنهب العديد من مواقع الآثار خاصة المدافن. وقد كشفت أعمال المسح الميداني في منطقة الدراسة عن تدمير أكثر من 90% من مواقع الآثار ما بين مواقع إستيطان ومدافن مما أدى إلى تبعثر وإنتشار مخلفاتها الثقافية على سطح الأرض حيث أصبحت خارج سياقها الآثاري، مما أفقدها قيمتها العلمية والتاريخية. وقد أكدت هذه الأعمال التخريبية وجود تخصصية عالية في نهب المدافن وذلك بإستهداف أجزاء معينة من المدفن.

خلفية تاريخية عن تعدين الذهب:

عرف معدن الذهب منذ الفترات القديمة، ذلك من خلال المعثورات الأثرية التي وجدت في مقابر الملوك والملكات، أو في غيرها من المواقع. ويوجد الذهب الخام في عدة أشكال منها في شكل عروق داخل الصخور خاصة الكوارتز، أو في شكل ترسبات في الصخور والرمال، وفي أحيان أخرى في التربة الطينية في أودية الصحراء. ومن الثابت أن الذهب كان مرتبطاً بالسودان منذ أقدم العصور، حتي أنه كان ضمن الأسماء القديمة التي أطلقت عليه «النوبة»، والتي تعني «أرض الذهب»، ويرجع ذلك إلي النقش الذي يعود إلي الملك أمنحتب الأول في عهد الأسرة X11 (MacMichael:1922:12). وقد شكل الذهب أحد المحاور الرئيسية في النصوص القديمة المتعلقة بتاريخ وادي النيل، ونجد أن من أقدم الاشارات التي تدل علي تنقيب الذهب في السودان، هي التي تعود إلي فترة المملكة المصرية الوسطي (0091 ق.م)، حيث تم العثور علي لوحة في صعيد مصر في منطقة «أدفو»، وهذه اللوحة تعود إلي أحد الموظفين المصريين يذكر فيها أنه جلب كميات من الذهب من جنوبي كوش تقدر بـ 0042 جرام (Vercoutter:1959:133). وفي الحصن الغربي من قلعة سمنا (احدي حصون المملكة المصرية الوسطي)، وفي احدي غرفه عثر علي نقش

مصور يحتوي علي ميزان لوزن الذهب، يقوم بها بعض الموظفين بعملية وزن كميات منه في شكل حلقات صغيرة وضعت علي احدي كفتي الميزان (تقرير مصلحة الاثار السودانية رقم 89.69.82.1). وخلال حملة انقاذ اثار النوبة الأولى، عثر رايزنر (Reisner) علي نقوش موازين للذهب في قلعة «أوروناري» الواقعة الي الشمال من قلعة «سمنة» السابقة الذكر، كما عثر علي موازين مطابقة لها في كويتوز بمصر تعود لنفس الفترة (Ibid:135). وفي عهد المملكة المصرية الحديثة، اشتهر السودان بانتاج الذهب وبكميات كبيرة، خاصة في حويلات الفرعون «تحتمس الثالث» (1436-1490 ق.م)، حيث ظهرت كميات كبيرة من الذهب في الجزية التي تدفعها كل من «واوات» و «كوش» للفرعون سنويا.

كما عرفت كثير من التقنيات القديمة والحرف والصناعات في السودان من خلال النقوش والكتابات القديمة، حيث نجد ومن خلال النصوص المصرية القديمة أن هنالك ثلاثة مناطق رئيسية لانتاج الذهب في السودان قديما وهي:

- 1/ السلاسل والتلال الجبلية الممتدة علي طول البحر الأحمر، خاصة عند وادي العلاقي.
- 2/ ضفتي نهر النيل، حيث تكثر المناجم حولها.
- 3/ وادي قبقة.

وقد كان لكل منطقة من هذه المناطق الثلاثة مسمي خاص، قامت النصوص المصرية بتفريقها، حيث سمت منطقة البحر الأحمر (وادي العلاقي) بذهب واوات، ومنطقة نهر النيل بذهب كوش، أما منطقة قبقة فكانت تسمي بذهب صحراء تا-ستي. وقد كثر ذكر ذهب (تا-ستي وكوش) في كثير من النصوص، خاصة حويلات الفرعون «تحتمس الثالث»، والذي قام بتسجيل كميات من الذهب كانت ضمن الجزية النوبية (Soderbergh:1914:210). ومن الثابت أن اتخاذ الفواصل بين فترات التطور الثقافي للبشرية يكون عادة من أجل تسهيل عرض الحوادث ولكن الحقيقة الواضحة أنه لا توجد نهايات فاصلة ولا بدايات حاسمة بل هي مراحل تداخل بين فترة وأخرى، ومن هذا المنطلق لا بد هنا من أن نبدأ حديثنا عن بدايات نشأة التعدين في السودان من خلال فترة الممالك المصرية أو من الوجود المصري في السودان، وخاصة في عهد المملكتين المصريتين الوسطي والحديثة، حيث أشار أحد فراعنتها وهو «رمسيس الثاني 921-421 ق.م» ومن خلال لوحته (Stela) والتي وجدت في الجبل المقدس «البركل» أنه وجد ثمانية مناجم لانتاج الذهب في النوبة، ونسبة للتشويه الذي ألم باللوحه فقد عرفت أسماء خمس مناطق فقط هي جبل أمو، جبل كوش، صحراء تا-ستي، جبل خنت حن نفر والجبل المقدس (جبل البركل). وقد ذكر الفرعون «رمسيس الثالث» أنه أهدي معبد امون الكبير بجبل البركل 62 كيلوجرام من الذهب (Reisner:1920:80). ومن خلال الأبحاث الأثرية التي أجريت في منطقة الصحراء الشرقية السودانية، أثبتت وبما لا يدع مجالا للشك ثراء المنطقة بخام الذهب ومناجمه، وتعتبر مدينة «درهيب» من أهم المراكز الصحراوية المرتبطة بتعدين الذهب في الصحراء الشرقية.

كما ورصدت البعثة الإيطالية ما يربو عن ال 002 منجم قديم للتنقيب عن الذهب في المنطقة (Castiglioni:2004:122). ومن الملاحظ أن معظم هذه المناجم مصحوبة بمواقع استيطانية حولها، غالبا تقع علي ضفاف الأودية، بنيت من الحجارة الغير منتظمة، أو الألواح الحجرية المرصوة فوق بعضها البعض، وترجع تواريخ هذه المواقع لفترات مختلفة بدءا بالمملكتين المصريتين الوسطي والحديثة وانتهاء بالفترة الإسلامية (فائز حسن:92:4102). وفي عهد مملكة «نبته» 059ق.م، استمر ملوكها في السيطرة علي التنقيب عن الذهب، حيث سجل الملك «تهارقا» أنه أهدي معبد امون في الكوة ما مجموعه 02 كيلوجرام من الذهب (Macadam:1949:5)، وبعدها كذلك أهدي المعبد مرة أخرى 011 كيلوجرام من الذهب، هذه الكمية تعادل عشرة أضعاف ما أهده ملوك المملكة المصرية الحديثة للمعابد (وهذا يدل علي كثافة تعدين الذهب في الفترة النبتية).

أما فترة مملكة «مروي» فقد كان الذهب يشكل أحد أهم أركان اقتصادها، ومن أهم الصادرات المروية، وقد ظهر ذلك جليا في كمية الحلي والمجوهرات الذهبية المنتجة بكثافة محليا وفي مقابر الملوك والملكات في كل من البجراوية وجبل البركل (Dunham:1957). ومن الملاحظ كذلك أن أبرزها كنز الملكة «أماني شاخيتو» المعروف الآن في متحف المصريات ببرلين ومتحف ميونخ (Priese:1993). وفي فترة ما بعد مروي (004-006م تقريبا)، ليست هنالك معلومات كافية عن نشاط التعدين عن الذهب، بالإضافة الي قلة أو اختفاء المشغولات الذهبية من مقابر الملوك خاصة «بلانة» (فائز حسن:المصدر المذكور:23).

أما الفترة المسيحية (005-0051م)، فقد كانت عمليات التنقيب عن الذهب مزدهرة بصورة كبيرة، حيث مناجم الذهب في الصحراء الشرقية، والأخري التي تقع في النواحي الغربية للصحراء الشرقية، وثالثة تقع بالقرب من النيل وتحت سلطة مملكة المقرة المسيحية. كذلك نجد عمليات التنقيب عن الذهب في المناجم المتاخمة للحدود مع الحبشة، حيث كانت مملكة علوة تشرف عليها (مصطفى مسعد:0691:821-822). وفي أواخر القرن التاسع الميلادي غزا عبدالله العمري النوبة بجيش خاص من القبائل العربية بهدف السيطرة علي مناجم الذهب، فاستقر بمناطق الصحراء الشرقية وقام بتأسيس مملكة (ادامز:4002:214). وفي عهد دولة الفونج الإسلامية (4051م-1281م) كان للتنقيب عن الذهب أثر كبير في بروز الفونج كقوة سياسية وعسكرية صارمة، حيث انحدروا من مناطق انتاج الذهب، جنوب وغرب سنار وعلي الحدود مع الحبشة (يوسف فضل:3002:65-75). وتؤكد الروايات التاريخية علي أن زوجات ملوك الفونج كن يرتدين الحلي الذهبية بكثافة (فائز حسن:المصدر المذكور:32). ونجد أن من أهم الأسباب التي دعت محمد علي باشا لغزو السودان عام 1281م هي السيطرة علي مناجم الذهب في الصحراء الشرقية وجنوبي سنار (نعوم شقير:1891:391). وقد قام بارسال فردريك كايو علي رأس بعثة استكشافية الي الصحراء الشرقية عام 6181م للبحث عن الزمرد والذهب (المصدر السابق:591).

حديثا، فقد شجعت الحكومات المتعاقبة علي حكم السودان (المدنية والعسكرية) - خاصة

حكومة النظام البائد أو الانقاذ- المواطنين الي الولوج في حقل التنقيب الأهلي (العشوائى) للذهب، بعد أن ضاق بهم الحال المتردى في كثير من نواحي الحياة المختلفة أكثرها الوضع الاقتصادي- وقام كثير منهم بهجر أعمالهم الاخرى كالزراعة والحرف والصناعات الصغيرة وغيرها، اضافة الي تشجيع هذه الحكومات قطاعات اخرى وشركات، وأصبحت تتم عمليات انتاج كبيرة جدا للذهب دون رقابة حكومية عليها (بيئية - اجتماعية - اقتصادية ..الخ) خاصة الآثار.

إقليم الشلال الثالث (منطقة الدراسة):

الموقع:

تمتد منطقة المحس على طول نهر النيل من الحدود الجنوبية لمنطقة السكوت حتى الحدود الشمالية لمنطقة إقليم دنقلا. ويقع هذا الإقليم (المحس) بين خطي عرض 24° 12'- 24° 12' شمال خط الاستواء. ونجد أن حدود منطقة السكن على الجانبين (الضفة الشرقية والغربية)، على مساحات محدودة على طول نهر النيل حوالي 521 كلم على جانبي النيل.

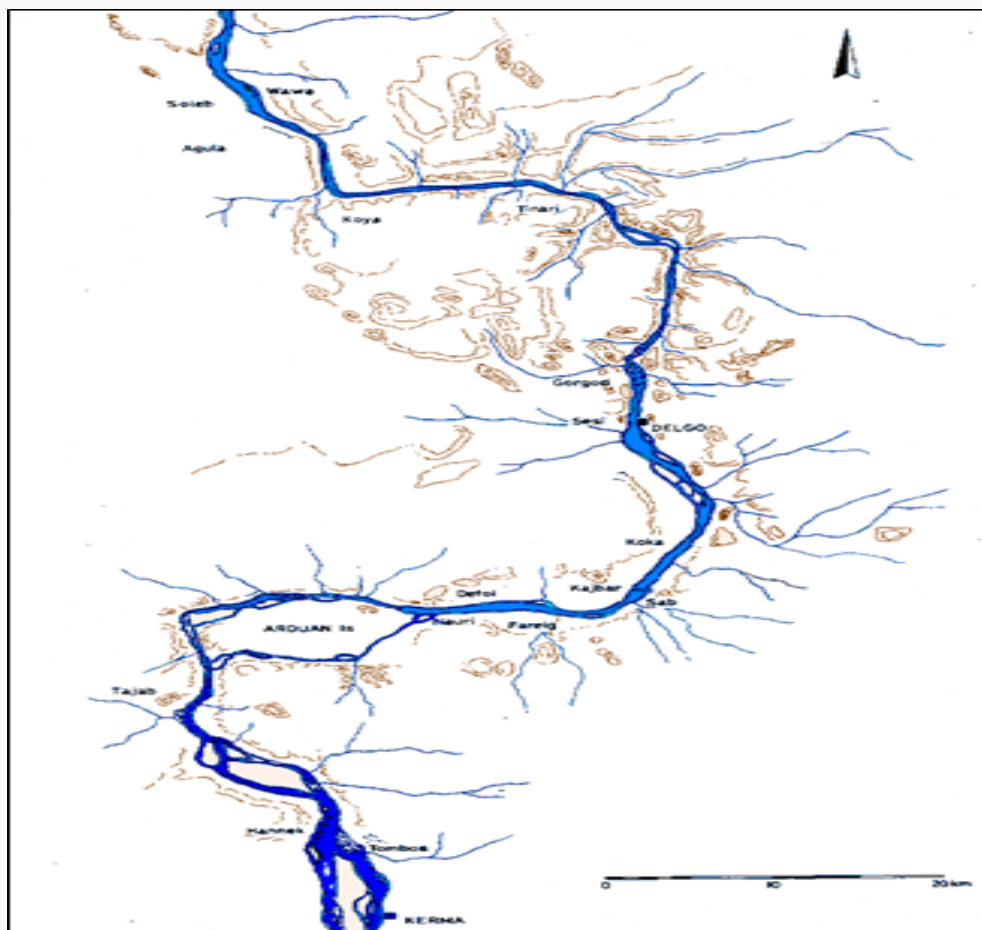
والمنطقة عموماً بها حوالي (54) قرية موزعة ما بين الجانبين وهي ذات أحجام مختلفة، حيث نجد أن حوالي (72) قرية على الضفة الشرقية و(81) قرية على الضفة الغربية إضافة إلى (8) جزر صغيرة داخل النيل على طول المنطقة (Osman1:1998:3).

وتعتبر منطقة الشلال الثالث هي واحدة من أغنى مناطق السودان وأكثرها كثافة وتنوعاً من حيث المعطيات البيئية، والأدلة الثقافية والتاريخية خاصة في فترة العصر الوسيط تبعاً لموقعها المتميز بين إقليم النوبة السفلى وإقليم دنقلا.



صورة جوية رقمية (1)

حدود منطقة الدراسة:



خريطة رقم (1)

منطقة اقليم الشلال الثالث

جيولوجيا المنطقة:

من المعروف أن الصحراء النوبية بها تنوع في الطبيعة الجيولوجية، حيث نجد أن الصخور الرملية والجرانيت يلعبان دوراً كبيراً في هذا التنوع. وفي هذه المنطقة نجد أن مجرى النيل ضيق ومنساب وتخلله بعض الجذر والشلالات وهناك أنواع أخرى من التربة (Adams:1977:13). وتكثر منطقة الشلال الثالث الخيران والأودية وهذا يدل على إحاطتها بالجبال. وهذه الخيران ضيقة وطويلة وتعتبر ممرات طبيعية للأمطار التي تسقط في الصحراء وتصب في النيل. وتعتبر الخيران مؤشراً لدراسة التغيرات البيئية عبر الحقب الجيولوجية المختلفة (Dawoud and Ahmed:, Vail:1973:33).



خريطة رقم (2)
جيولوجيا منطقة الدراسة
البيئة الطبيعية:

تقع هذه المنطقة في مناطق المناخ الصحراوي حيث تقل الأمطار، وقد تنعدم تماماً أحياناً عدة سنوات، حيث لا يتجاوز المطر 09 ملم في أعلى مستوياته، ونجد أن معظم شهور السنة جافة. وترتفع درجات الحرارة وتصل إلى أقصاها في شهري مايو ويونيو ومتوسط درجة الحرارة اليومية عادة ما يصل فوق الـ 03° فهرنهايت. وترتفع الرطوبة في منتصف اليوم على حوالي 01% في شهري مايو ويونيو و 51% في أغسطس. أما الشتاء فيصبح الجو بارداً لفترة 4 أشهر ومتوسط درجة الحرارة يتراوح ما بين 02-51 درجة (06° فهرنهايت) حيث تنخفض الحرارة في شهر يناير (Adams:Op.Cit:16). وتؤثر علي الاراضي الزراعية العديد من العوامل مثل تقدم التلال الرملية (الزحف الصحراوي) التي تنتقل بخطى ثابتة نحو الأراضي الزراعية (Dawoud and Ahmed;Vail:Op.Cit :36).

السكان:

يسمى سكان المنطقة بالمحس، وهم فرع من فروع المجموعة النوبية الذين يقطنون في المنطقة الواقعة بين أسوان والدبة ومنطقة خشم القربة في إقليم البطانة، وكومببو في صعيد مصر، واللذين كانتا دار هجرة للنوبيين المهاجرين من مناطقهم التي غمرتها مياه السد العالي في بداية الستينات من القرن الماضي (عوض:6591:34). ويمثل السكان الحاليين للإقليم جزءاً من المحس الذين يسكنون المنطقة ما بين تمبس في الجنوب و صلب في الشمال (Osman2:1998:34).

الحيوانات:

تذخر المنطقة بالحيوانات البرية مثل الغزلان، الأرانب، الفئران، الثعالب والذئاب، كما نجد الحيوانات الأليفة مثل الماشية التي تستخدم في الأغراض الزراعية والنقدية، بالإضافة إلى الخراف والماعز والحمير والإبل وتوجد الكلاب والقطط، إضافة إلى الدواجن مثل (الدجاج والحمائم والبط البري، الغربان والعصافير، الهدهد والصقور) والطيور المهاجرة، أما الحيوانات المائية فتوجد أنواع كثيرة من الأسماك التي تعتبر مصدر غذائي هام، وتوجد أيضاً التماسيح النيلية ولكنها نادراً ما ترصد وتوجد الزواحف النيلية النادرة مثل السلحفاة والورل (Osman3:1989:7).

النباتات:

توفر البيئة النيلية بالمنطقة تربة صالحة لأنواع متعددة من النباتات تنمو في مجرى النيل وعلى ضفتيه، حيث نجد أشجار النخيل والدوم وحشائش الحلفاء، أشجار السنط- الهشاب- الطلح- السدر- الطرقة والطنوب إلى جانب النباتات النيلية مثل المرمندي (Marmandi) والسيسبان والتنوم والجورتي والتبر. كما تنمو في الخيران نباتات العشر والحرجل والهمبري (السنمكا) (Osman3:Ibid:5).

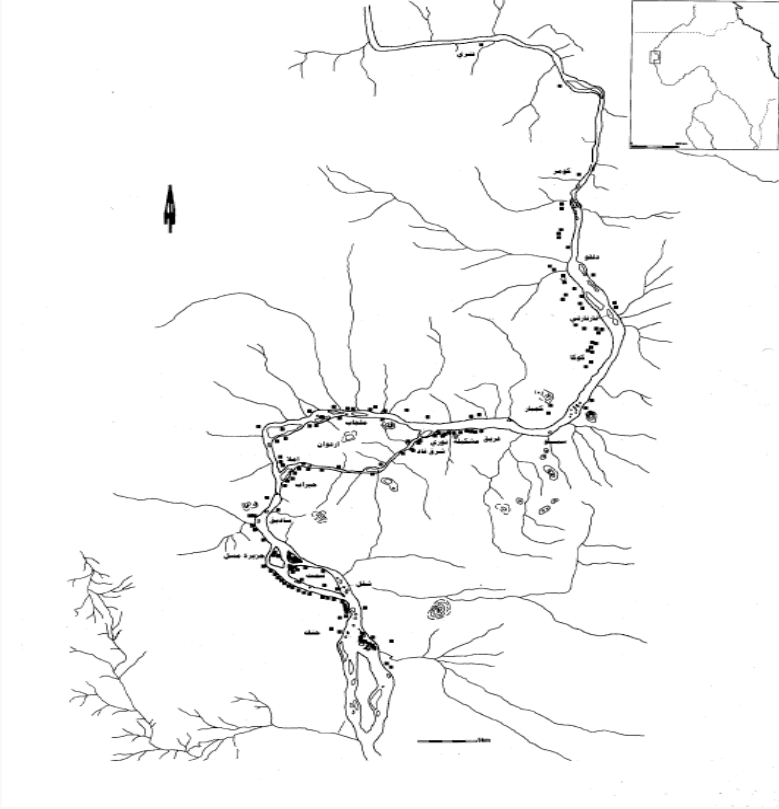
الاقتصاد:

تمتاز منطقة المحس بمعطيات اقتصادية جعلت منها بؤرة أو مرتع خصب للإنسان منذ القدم. كما جعلتها جاذبة للانتباه منذ قديم الزمان، فالمصادر الطبيعية التي تمتلكها المنطقة وغيرها شجعت على الاستقرار فيها، كما نجد المناطق الزراعية (السهلية) على جانبي النيل على الرغم من ضيقها إلا أنها خصبة (ابوسليم:1980:201).

خلفية تاريخية:

برهنت أعمال المسح الأثري الذي تم في المنطقة على وجود إرث ثقافي وعمراني تليد، والذي يشتمل على عدد كبير من مواقع ما قبل التاريخ والمواقع التاريخية. كما حظيت منطقة المحس بزيارة عدد من الرحالة، منذ فترات قديمة، ففي الفترة التي كانت فيها السيادة للمملكة المسيحية، زارها ابن سليم الأسواني الذي بعثه جوهر الصقلي في عهد الدولة الفاطمية لدعوة الملك (جورج) إلى الإسلام، وكان ابن سليم قد وصف الآثار الموجودة في منطقة المحس. كما زارها الرحالة التركي إيليا شلبي في عهد الدولة العثمانية، وعبر إيليا شلبي منطقة المحس وقد ذكر عدد من المناطق الأثرية (Celbi:1938).

وقد أكدت الاكتشافات الأثرية صحة وصفه الجغرافي والسياسي لمنطقة المحس وشاهدًا على معرفته الدقيقة بما وصف وصحة ما ورد في الخريطة التركية المصاحبة لرحلته، والتي يبدو أنها رسمت حوالي عام 5871م، ووجدت ضمن المجموعة (The Bilioreca Vaticana). وبعد الدراسة المتأنية لما كتبه إيليا شلبي، وبعد أن تم تنفيذ مشروع المسح الأثري والتراثي لمنطقة المحس التابع لقسم الآثار جامعة الخرطوم بالاشتراك مع المعهد البريطاني بشرق أفريقيا. وقد كانت البداية 0991م، وهو مستمر حتى الآن.



خريطة رقم (2) تصميم الباحث

مواقع منطقة الدراسة:

أثر التعدين العشوائي علي المواقع الأثرية في منطقة الدراسة (اقليم الشلال الثالث):

من المعلوم أن التعدين العشوائي للذهب له كثير من التأثيرات والجوانب السلبية الأخرى التي تؤثر علي المنطقة غير تأثيره السلبي والكبير علي الآثار، فنجد مثلا الوضع البيئي، حيث أثرت أعمال التنقيب العشوائي تلك علي الانسان والحيوان والنبات بصورة كبيرة، فنجد الي جانب تدهور التربة بعمليات الحفر والتنقيب التأثير الخطير علي صحة الانسان والحيوان والنبات كذلك باستعمال مواد ضارة جدا مثل السيانيد والزئبق وغيرها من عمليات تنقية وتنظيف الشوائب العالقة بالذهب وغيرها من الأضرار، أما الجانب الاقتصادي والذي يؤثر كثيرا علي باقي الجوانب الأخرى الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، فعلي الرغم من الكميات الضخمة التي يتم استخراجها من عمليات التنقيب المختلفة، الا أنغاليبتها كانت تذهب الي شركات وأشخاص معينين ولا تدخل خزينة الدولة ليتم الاستفادة منها، بل ويتم تهريبها الي دول أخرى، حتي المؤسسات العسكرية الرسمية وغير الرسمية (الجيش - الدعم السريع - جهاز المخابرات) كانت تلعب دورا

كبيرا في ذلك. أثر هذا الوضع الاقتصادي المتردي، بل والمنهار نهائيا، الي تفاقم الأوضاع المأساوية الأخرى في النواحي الاجتماعية والثقافية والنفسية، حيث حصلت هجرات ونزوح لجماعات وأخرى فردية لأناس كثيرين بسبب عمليات التعدين العشوائي، بسبب دخول أفراد ذوي جنسيات وقبائل وعادات وتقاليد مختلفة (تغيير ديموغرافي)، واستخدام المفرقعات (الديناميت) في عمليات التنقيب، بالإضافة الي عمليات نهب وسرقات وغيرها، مما فاقم بأوضاع مؤلمة ومأساوية يعيشها الان أهالي المنطقة.



التأثيرات البيئية

التأثير علي مواقع الاثار:

درج المنقبون علي الذهب (الدهابة) في الاونة الأخيرة ومن خلال الدراسة الميدانية التي تمت لهم في منطقة الدراسة (إقليم الشلال الثالث) علي تعقب مواقع الاثار المختلفة ورصدها وجمع كثير من المعلومات عنها، سواء من المتخصصين (الاثاريين - الجيولوجيين) وأخذ معلومات منهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أو عن طريق الصدفة، أو من أهالي بعض المناطق الأثرية المتاخمة لمواقع التنقيب عن الذهب. كما وأن كثير من سارقي وبائعي الاثار ولجوا مجال التعدين عن الذهب كغطاء وستار لعملياتهم المشبوهة والغير قانونية، وغيرها من الأفعال، لكن هنالك مواقع بعينها يرصدها المنقبين عن الذهب ويتبعونها وتكون مستهدفة لهم وهي:

اختيار المواقع الاثرية (رسومات صخرية (الجبال) - مدافن - استيطان - الخ..):

من أكثر الأماكن والمواقع التي يختارها المنقبين عن الذهب المواقع الاثرية ذات الرسومات الصخرية، وذلك لعدة أشياء أولاها أن هذه الرسومات تتم علي الصخور الجرانيتية والرملية المنتشرة في المنطقة وهي ذات الصخور التي يكثر بها معدن الذهب، سواء كان علي شكل حبيبات او ترسبات أو علي شكل عروق داخل الصخور، ثانياوعلي حسب اعتقادهم بأن الرسومات هذه (خاصة الرسومات التي بها قرون أبقار) أول دليل علي وجود كميات من الذهب في هذا

الموقع أو ذاك المكان، وأن من قام برسم هذا النقش أو الصورة هذه في هذا المكان الا لوجود هذا الذهب فيه وبكميات كبيرة كذلك، لذا يقومون مباشرة اما بحفر المكان هذا بأدواتهم اليدوية أو من خلال استعمالهم الآلات الكبيرة (اللوادر والبوكليينات) خاصة وان كان هذا الرسم علي جبل.



التأثير علي مواقع الرسومات الصخرية (قبل وبعد)



التأثير علي المواقع الاثرية (المدافن)

أماكن الأودية والخيران:

كذلك من أكثر المواقع التي يتخيرها المنقبون عن الذهب أماكن الأودية والخيران، وهذه الأماكن يعتقد أن بها أو برمالها حبيبات الذهب، خاصة وأن أغلب هذه الأودية والخيران تمر عبر سلاسل جبلية.



التأثير علي الأودية والخيران

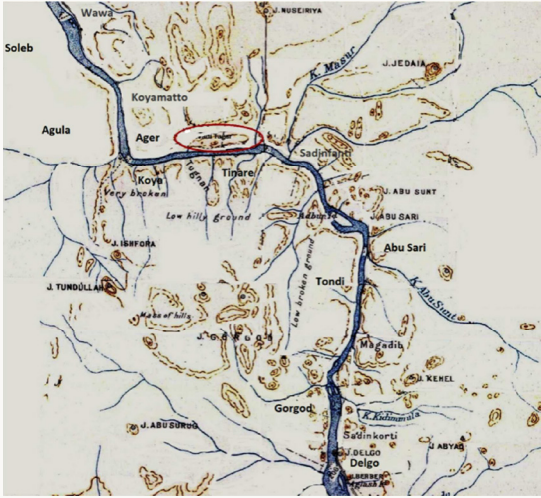
الروايات الشفاهية:

كثير من المنقبين عن الذهب يبحثون عن أماكن تواجد الذهب من خلال الحديث الذي يتم تناقله أو تداوله بين العامة، ونجد أنه في كثير منه يكن مبالغ فيه وغير حقيقي، وبالرغم من ذلك نجد أن هؤلاء المنقبين يأخذون هذه الأحاديث وتلكم الروايات علي محمل من الجد ويقومون بعمليات البحث والتنقيب.

متخصصو الآثار والجيولوجيا (الخرط الاثرية والجيولوجيا):

يسعي كثير من المنقبين عن الذهب عن معرفة أماكن تواجده، ويلجأون كثيرا الي متخصصي الآثار والجيولوجيا باعتبار أن هؤلاء لهم معرفة ودراية بأماكن وجود الذهب وبكميات كبيرة، ومعرفة كذلك المناجم والمناطق والجبال التي يكثر فيها، والخرائط التي تؤكد ذلك، فيعملون علي كسب هؤلاء المتخصصين بالاغراء حيناً وبالتحاييل أحيانا أخرى.

خريطة رقم (3)



صورة جوية رقم (2)

الخاتمة:

أصبح السودان بصورة عامة ومنطقة الشلال الثالث (منطقة الدراسة) علي وجه الخصوص يعاني من ويلات التعدين العشوائي للذهب (الدهابة)، وحتى نستطيع حفظ وحماية مواقعنا الأثرية من هجمات ودمار منقبو الذهب علينا اجراء الاتي:

- 1/ التعاون الكامل ما بين الهيئة العامة للآثار والمتاحف ووزارة المعادن، خاصة في مجال توزيع مربعات العمل (النفط - الذهب - النحاس ..الخ) والا يتم ذلك الا بعد أخذ الاذن من الهيئة العامة للآثار والمتاحف واجراء عمليات المسح الاثاري وخلو المنطقة من الآثار.
- 2/ نشر الوعي الاثاري والتراثي، وذلك بعمل ندوات ومحاضرات معرفية وتثقيفية لسكان المنطقة عامة ولمنقبو الذهب بصفة خاصة بأهمية وقيمة الآثار والتراث الانساني.
- 3/ اشراك الجهات الرسمية (الحكومة) والشعبية (لجان شعبية - لجان مقاومة) ومنظمات المجتمع المدني في عملية حفظ وحماية المواقع الاثرية.

التوصيات:

- وحتى يتم الوصول الي مبتغانا في حفظ وحماية المواقع الاثرية من عمليات الدمار والخراب التي ألمت بالمنطقة، نوصي بالاتي:
- 1/ اعادة صياغة وتغيير قانون الآثار (1999م) وتنفيذه.
 - 2/ الاهتمام بشرطة السياحة والآثار والتراث القومي.
 - 3/ نشر الوعي الاثاري والتراثي في السودان بصورة عامة ومناطق التعدين بصفة خاصة.
 - 4/ عمل دوريات ولجان متابعة علي الصعيدين الرسمي والشعبي لمتابعة عمليات التعدين العشوائي للذهب ولحد من اثاره البيئية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية.

الهوامش:

المراجع باللغة العربية:

- (1) ابوسليم، محمد ابراهيم-الساقية-معهد الدراسات الافريقية والاسيوية-دار جامعة الخرطوم للنشر-الخرطوم-0891م.
- (2) نعوم شقير1-جغرافية وتاريخ السودان-بيروت-2791م.
- (3) نعوم شقير2-تاريخ السودان- تحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم - دار الجيل - بيروت-1891م.
- (4) مصطفى محمد مسعد -الاسلام والنوبة في العصور الوسطي-القاهرة-0691م.
- (5) وليام ادامز -النوبة رواق افريقيا- ترجمة: محبوب التجاني محمود - القاهرة -4002م.
- (6) يوسف فضل حسن -مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي 0541-1281م- ط4 - سوداتك- الخرطوم -3002م.

المقابلات الشفاهية:

- (1) علي عثمان محمد صالح-قسم الآثار جامعة الخرطوم-2202م.

المراجع باللغة الانجليزية:

- (1) Adams, W.Y 1977: Nubia Corridor to Africa-London
- (2) Castiglioni, A & A 2004: "Gold in the Eastern Desert" in Welesby, D.A. Sudan Ancient Treasures. Pp.122132-. London.
- (3) Dunham, D 1957: Royal Tomb at Meroe and Barkal. RCK. Vol.1 V. Boston.
- (4) Evilya, Celbi 1938: Seyahatuamesi: Misr, sudan, Habes: 197280 -, Istanbul.
- (5) Dawoud, A.S. & Ahmed, F. a Vail. 1973: Geology of the Third Cataract. Northern Province. Khartoum.
- (6) Macadam, M.L 1949: The Temples of Kawa1. London.
- (7) Mac Michael, H.A 1922: A History of the Arabs in the Sudan. 2 vols. Cambridge.
- (8) Osman, A.1 1998: The post –Medieval Kingdom of Kokka; means for a letter understanding of the Administration of Medieval

- (9) By J, N, Plumley, pp, 184-196, London Kingdom of Dongola “SARS.(ed)
- (10) 1998: The Historical Settlement Pattern of the third Cataract Region: A model for the Exploration of its Archaeological Stages” presented to the 10th international Conference of the international society for Nubian studies, Boston.
- (11) 2004” Archaeology and settlement in the third Cataract region during the Medieval and post-Medieval Period” in Fifty years in the Archaeology of Africa. Themes in archaeological theory and practice. BIEA. pp. 344-9. Nairobi. 1997: The great DNA Hunt, New York.
- (12) Priese, K 1993: The Gold of Meroe .Mainz.
- (13) Soderbergh, T.S 1941: Egypt und Nubia, Lud: Hakan Ohlssons.

أنواع التجارة والسلع التجارية في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري

قسم التاريخ - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
- جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

أ.يوسف عبد الله حمدان القرشي

المستخلص:

التجارة أحد الموارد الاقتصادية للدول والأفراد، وكانت المدينة المنورة أحد البلدان التي كانت فيها عدة أنواع من التجارات، وتوفرت فيها عدد من السلع التجارية الضرورية التي احتاج إليها أهلها في القرن الثالث عشر الهجري. وهذا البحث يهدف إلى بيان أنواع التجارة والسلع التجارية في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري. وتتمثل أهميته في أنه دراسة تاريخية تتناول بيان نشاط حركة التجارة في حقبة تاريخية بعينها في المدينة المنورة. وانقسمت التجارة في المدينة المنورة في الفترة المشار إليها إلى نوعين رئيسيين: التجارة الداخلية، والتجارة الخارجية. وأما السلع التجارية فتتنوع تبعاً لحاجة أهل المدينة المنورة، وحاجة الوافدين إليها في موسم الحج. وقد ختمت هذا البحث بعدة نتائج وتوصيات؛ من أهم النتائج أن العمليات التجارية في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري كانت تتم عبر طرق تجارية وموانئ برية تربط المدينة المنورة بغيرها من المدن الداخلية، والبلدان الخارجية. ومن أهم التوصيات دراسة التطور التاريخي للحياة الاقتصادية في المدينة المنورة بين الماضي والحاضر. الكلمات المفتاحية: التجارة، السلع، المدينة المنورة، القرن الثالث عشر الهجري.

Types of trade and commercial goods in Medina in the second half of the thirteenth century AH

Youssef Abdullah Hamdan Al- Qurashi

Abstract:

Trade is one of the economic resources for countries and individuals, and Medina was one of the countries in which there were several types of trade, and there were a number of necessary commercial goods that its people needed in the thirteenth century AH. Its importance is that it is a historical study dealing with the activity of the trade movement in a specific historical period in Medina. Trade in Medina in the period referred to was divided into two main types: internal trade and foreign trade. As for commercial commodities, they varied according to the needs of the people of Medina, and the need of those arriving during the Hajj season. This research concluded with several

results and recommendations. One of the most important results is that commercial operations in Medina in the second half of the thirteenth century AH were carried out through trade routes and land ports linking Medina with other internal cities and foreign countries. One of the most important recommendations is to study the historical development of economic life in Medina between the past and the present.

Keywords: trade - commodities - Medina - the thirteenth century AH.

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً،

وبعد:

فإن المدينة المنورة أحد المدن التي لها مكانة كبيرة في الإسلام؛ حيث إنها العاصمة الأولى للإسلام، وأن فيها أماكن ذات طابع ديني وتاريخي كبير، كمسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقبره الشريف، والبقيع الذي دفن فيه خيرة الصحابة والصالحين. ونظراً لهذه المكانة - بالإضافة إلى مكانتها التاريخية والجغرافية - كانت المدينة المنورة أحد البلدان التي لاقَت عناية واهتمام من حكمها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، فقد كانت في هذه الفترة تحت حكم محمد علي باشا ومن بعده رجعت إلى حكم الدولة العثمانية، وكان من مظاهر هذا الاهتمام العناية بالحياة الاقتصادية والتي لا تنفك عن الحياة السياسية، ففي هذه الفترة تعددت الموارد الاقتصادية في المدينة المنورة؛ من رعي وزراعة وغيرهما، وكانت التجارة أحد هذه الموارد؛ فقد اشتغل بعض أهلها بالتجارة، وكان لموسم الحج أثر كبير في نشاط حركة التجارة، فانتشرت فيها أنواع التجارة المختلفة، كما وجدت العديد من السلع والبضائع التي تاجر فيها التجار وفئاتهم المختلفة، وفي هذا البحث سأحدث عن أنواع التجارة المنتشرة في المدينة المنورة، والسلع التي تاجر فيه التجار في الفترة التاريخية المشار إليها.

أنواع التجارة في المدينة المنورة:

رغم انتشار التجارة ونشاط حركتها في المدينة المنورة في موسم الحج والزيارة إلا أنها لم تكن مما يوليه أهل المدينة المنورة عناية واهتماماً مقارنة بالهجن والحرف الأخرى، فقد وصفها بيرتون - أحد الرحالة الذين زاروا المدينة المنورة - بقوله: «ورغم أن التجارة هنا حرفة محترمة - كما هو الحال في سائر أنحاء الشرق - إلا أن الحركة التجارية خامدة؛ لأن عليّة القوم يفضلون الكسل، فيكتفون بإدارة أراضيهم وعقاراتهم، وأن يكونوا خدماً في المسجد النبوي»⁽¹⁾. وكلام بيرتون بأن سبب خمود التجارة في المدينة هو كسل عليّة القوم مردود من وجهين:

الأول: أنه نفسه أقر أن عليّة القوم مشغولون بإدارة أراضيهم وعقاراتهم والخدمة في المسجد النبوي، مما ينفي عنهم الكسل.

الثاني: أن تعليله هذا لا يُعدُّ دليلاً كافياً على خمود التجارة في المدينة المنورة؛ فليس

امتناع فئة معينة من فئات المجتمع دليلاً على خمود التجارة، فلعل هؤلاء لم يودوا الاشتغال بالتجارة: خاصة أنه أكد على انشغالهم بأعمال أخرى، ولكن كان من المفترض عليه أن يذكر أسباباً مقنعة لخمود التجارة في المدينة، كنقص السلع أو مشقة العمل بالتجارة وقلة ربحها العائد على المشتغلين بها.

وبالنظر في الحركة التجارية في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري نجد أن أنواع التجارة فيها كالتجارة في غيرها من البلدان تتخذ نوعين رئيسين: داخلية، وخارجية، وقد كان لموقع الحجاز على البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام، واليمن جنوباً، وبمصر براً وبحراً، وتجارته مع إفريقيا والهند، أثره الكبير في النشاط التجاري داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، وبهذا أصبحت مدن الحجاز محطات تجارية⁽²⁾.

وسوف أعرض لأبرز معالم نوعي التجارة في المدينة المنورة؛ الداخلية والخارجية.

أولاً: التجارة الداخلية:

وتتمثل في التبادل التجاري الذي يتم بين أهل المدينة المنورة بعضهم البعض، وبينهم وبين أهل القرى والأودية والبوادي المحيطة بها، وبينهم وبين تجار مدن الحجاز الأخرى كمكة وجدة وغيرهما⁽³⁾. وتستند التجارة الداخلية على المحاصيل الزراعية والمنتجات المحلية؛ حيث تسهم المحاصيل الزراعية في مزارع المدينة المنورة، وفي القرى والأودية المحيطة بها، وفي أعراض المدينة في قيام نشاط تجاري⁽⁴⁾. وكان البدو المجارون للمدينة المنورة ينقلون بعض المؤن وأدوات الزينة ومواد الرفاهية والفواكه والحلويات والسكاكين وغيرها من البضائع إلى المدينة، وكانوا يمدون قافلة الحج الشامي بهذه المؤن وغيرها⁽⁵⁾. وأما عن التجارة الداخلية بين المدينة المنورة والمدن الحجازية الأخرى فقد كانت تجارة جدة مع المدينة المنورة تتم عن طريق قافلة تجارية تتجه إلى المدينة المنورة مرة واحدة كل أربعين أو خمسين يوماً، حاملة معها البضائع والعقاقير الهندية، وغالباً ما تكون هذه القوافل مصحوبة بعدد من الحجاج إلى المدينة المنورة؛ لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وتتكون هذه القوافل من عدد من الإبل يتراوح عددها ما بين ستين ومائة يقودها بدو عرب، وتغادر مدينة جدة عن طريق بوابة المدينة المنورة، وهناك طريق آخر يتم عن طريقه التواصل التجاري بين جدة والمدينة المنورة عُرف بطريق ينبع الأوسط؛ حيث كان يتم شحن البضائع من ميناء جدة إلى ميناء ينبع، ثم تحملها القوافل التجارية البرية إلى المدينة المنورة⁽⁶⁾.

كما كانت جدة تعتمد على العديد من المنتجات الواردة من مدن بلاد الحجاز، ومنها المدينة المنورة، ومن السلع التي كانوا يستوردونها التمور؛ لأهميتها الكبيرة بالنسبة لأهالي جدة في طعامه⁽⁷⁾. وكان لأسواق المدينة المنورة دوراً كبيراً في انتشار ونشاط حركة التجارة الداخلية، خاصة وأن كثيراً من هذه الأسواق قد اختص ببيع أصناف معينة من السلع والبضائع التي يحتاج إليها سكان المدينة المنورة.

كما كان لموسم الحج والزيارة دورًا في نشاط الحركة التجارية الداخلية في المدينة المنورة؛ لما للحجاج وزوار المدينة المنورة الرغبة في حمل الهدايا والأزواد لذويهم وأقاربهم وأصدقائهم. فعلى هذا فإن التجارة الداخلية في المدينة المنورة كانت محدودة، تنتعش تارة ويصيبها الركود تارة أخرى، وكان أكثر أوقات ازدهارها مواسم الحج والعمرة؛ فكان يزدهر سوق الحطب والتمور وسوق الأغنام والملابس والمفارش والحلي والهدايا، وكان معظم نشاط هذه الأسواق خلال فترة الحج⁽⁸⁾.

ثانيًا: التجارة الخارجية:

تمثل التجارة الخارجية للمدينة المنورة تبادل السلع والبضائع التي يحتاجها أهلها مع كثير من البلدان من خارج بلاد الحجاز، وذلك عن طريق علاقات تجارية تربط تجار المدينة بغيرهم من تجار البلدان الأخرى؛ لأجل توفير الحاجيات التي لا غنى عنها، وبالنظر في التجارة الخارجية للمدينة المنورة نجد أن مدارها على الواردات من الخارج من عدة بلدان كجواهر الهند والشام وكشمير والعجم وغيرها⁽⁹⁾، وكان بالمدينة المنورة كذلك أشخاص متعددون ينشغلون بالمعاملات التجارية التي تعتمد على القوافل⁽¹⁰⁾.

وتعد الطرق التجارية ذات دور كبير في نشاط الحركة التجارية الخارجية في المدينة المنورة؛ باعتبارها أحد المنافذ التي من خلالها تمر التجارات على اختلافها من وإلى المدينة المنورة، كما أنها وسيلة لتيسير التنقل بين البلدان بعضها البعض، وكانت هذه الطرق التجارية على ضربين؛ طرق برية، وطرق بحرية، من خلالها يمكن معرفة نشاط الحركة التجارية ورواجها في كل عصر ومصر. أولًا: الطرق التجارية البرية:

من أهم طرق التجارة البرية القديمة التي تربط المدينة المنورة بغيرها من البلدان منذ صدر الإسلام؛ طريقا الحج اللذان يصلان المدينة المنورة بالشام ومصر⁽¹¹⁾، وكان الطريق المصري يسير عبر الساحل، وكان يمثل الطريق الرئيس لتجارة المدينة مع مصر⁽¹²⁾. ومن أبرز الطرق التجارية التي كانت تمر بالمدينة المنورة الطريق الممتد من اليمن إلى الشام في الجزيرة العربية، والذي تقطعه القوافل المحملة بالسلع اليمنية والحبشية والهندية، وتعود بالمنتجات الشامية والمصرية وغيرها إلى اليمن⁽¹³⁾.

ولا شك أن هذه الطرق تسهم في إثراء الحركة التجارية ونشاطها، خاصة إذا اشتملت بكافة صور التأمين من قبل الدولة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، فقد كان هناك دور لكل من الدولة العثمانية وشريف مكة المكرمة والقبائل البدوية العربية، للعمل على حفظ الأمن والاستقرار في إقليم الحجاز عموماً وعلى الطرق خصوصاً⁽¹⁴⁾.

ثانياً: الطرق التجارية البحرية:

الطرق التجارية البحرية تتمثل في الموانئ البحرية الواقعة بالقرب من المدينة المنورة، وهذه الموانئ لها أهميتها ودورها الكبير في تنشيط الحركة التجارية، وقد ذكرت سلفاً أن من الموانئ التي لها الأثر في تجارة المدينة المنورة ميناء ينبع الذي حل محل ميناء الجار، وكان له

أهمية اقتصادية باعتباره البوابة البحرية للمدينة المنورة، وكان لتجار المدينة وكلاء فيه من عرب جهينة. وبجانب الطرق البرية والبحرية ومدى إسهامها في تنشيط حركة التجارة في المدينة المنورة، فإنني ذكرت فيما سبق دور موسم الحج والزيارة في تنشيط التجارة الداخلية، وهو كذلك بالنسبة للتجارة الخارجية، كما ذكرت أن أهل المدينة غير نشطين في تجارتهم وليس لديهم الهمة في الاشتغال بها، فإن الكثير من بضائعهم المختلفة الأنواع ترد إليهم من مصر وسوريا وإسطنبول⁽¹⁵⁾. وبهذا اتضحت أنواع التجارة التي وجدت في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري.

السلع المتاجر فيها في المدينة المنورة:

تعددت أسواق المدينة المنورة وكثرت السلع المتاجر فيها، حتى أن أكثر الأسواق فيها قد سمي باسم السلع التي تباع فيها، ومن هذه السلع والبضائع التي اشتهرت بها التجارة في المدينة المنورة ما يلي:

1. السمن والجبن والأقط: كان يأتي بها البدو من كل ناحية من أطراف المدينة المنورة مما أنتجته أغنامهم التي يرعونها في البادية، وذلك في فصل الربيع، وكانوا يجتمعون في الساحة الواقعة شرقي المناخة مما يلي شارع مسجد السيدة فاطمة⁽¹⁶⁾، وفي هذا الموسم كان التجار يضطرون إلى إخراج ما خزّوه من السمن والجبن ويبيعونها بأخفض الأسعار؛ خوفاً من بوارها بعد نزول السمن والجبن الجديدين للأسواق⁽¹⁷⁾.
2. الحشيش وورق الشجر والدباغ والحبال والفحم والحطب: كانت هذه السلع تباع بسوق الفلتية⁽¹⁸⁾.
3. الحبوب والبقوليات من قمح أو ذرة أو شعير أو فول وغيرها: وكانت تباع في سوق الحبابة بالجملة والقطاعي، وكانت هذه الحبوب محلية أو مستوردة، وكانت تباع بالمد⁽¹⁹⁾ والصاع⁽²⁰⁾. ويصل القمح إلى المدينة من جدة براً، كما يرد إلى ينبع أو عن طريق ميناء الرايس⁽²¹⁾ على البحر الأحمر، ويبعد عن الصفراء يوما ونصف⁽²²⁾.
4. الشنان: وهو مادة لغسيل الحوائج والأوعية، وهي عشبة تنبت في مسيل المدينة المنورة، تسحق كالديق يجمعها بعض التجار ثم تباع لربات البيوت، فتقوم المرأة بوضعه في كيس خاص أو جرة من الفخار فتأخذ منه بمغراف صغير جعل خصيصاً له، وكان يعرضه التجار أمام دكاكينهم بصحون كبيرة⁽²³⁾.
5. التمور: وفي المدينة تمور كثيرة وأكثر تنوعاً من أي بلاد أخرى، فمنها: الحلوة، والبرني، والعنبر، والعجوة، والبيض، وقد قيل: إن في المدينة نحو من سبعين صنفاً من التمور، وتجارة التمر أكثر رواجاً في المدينة وأوسعها لكثرة إنتاجه؛ حيث إن بضواحيها كثيراً من البساتين والنخيل، وكان التمر هدية القادم من المدينة إلى أي بلد آخر في الحجاز أو الهند أو مصر وغير ذلك من البلاد الإسلامية، وكان بيعها في سوق مخصص بها يُسمَّى سوق التمرة⁽²⁴⁾.

6. أدوات الزينة ومواد الرفاهية كالتمباك والفواكه المجففة والمرببات أو الحلويات والسكاكين: وكان يأتي بها البدو المجاورون للمدينة المنورة ويمدون بها قافلة الحج الشامي⁽²⁵⁾.
7. الخضرة والفواكه والجزارة: وهذه السلع تباع في سوق يسمى الخضرية وبجانب بائع الخضر توجد مباسط الجزائريين⁽²⁶⁾.
8. مواد البناء: وكانت تُرسل بحرا من الدولة العثمانية بإسطنبول أو من مصر، وذلك عن طريق ميناء ينبع، الذي كان لتجار المدينة وكلاء فيه من عرب جهينة⁽²⁷⁾.
9. القماش والعطور والمصنوعات الفضية: وهذه السلع كانت تباع في سوق القماشة⁽²⁸⁾. كما كانت تنطلق البائعات بالثياب المطرزة بالحرير التي تعملها ربات البيوت مما تنقشه أيديهن على المنسج من ثياب وأقمصة وسراويل تخاط ثم تنقش بطريقة ملفتة، فتسلم إلى البائعة التي اتخذت رصيف سبيل فاطمة شجرة الدر الشرقي أمام ساحة باب المصري مجلساً لبيع ذلك⁽²⁹⁾.
10. بعض السلع والبضائع التي كانت ترد إلى ميناء ينبع وغيره من موانئ بلاد الحجاز، كالشعير والرقيق والفحم النباتي والأذرة الرفيعة والأغطية والجلود والصمغ والتوباكو وعرق اللؤلؤ والمرجان الأحمر والخشب والبن واللبان، وغيرها⁽³⁰⁾.

خاتمة:

بعد أن بينت أنواع التجارة في المدينة المنورة في القرن الثالث عشر الهجري، وذكرت أنها نوعان: داخلية وخارجية، وبينت كذلك السلع التي كان يُتاجر فيها في الفترة الزمنية المشار إليها وتنوعها، أستطيع أن أتوصل إلى عدة نتائج وبعض التوصيات.

النتائج:

1. كان لموقع الحجاز على البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام شمالاً واليمن جنوباً برّاً، ومصر برّاً وبحراً، وتجارته مع إفريقيا والهند، أثره الكبير في النشاط التجاري داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، وبهذا أصبحت مدن الحجاز محطات تجارية، ومنها المدينة المنورة.
2. تستند التجارة الداخلية في المدينة المنورة على المحاصيل الزراعية والمنتجات المحلية.
3. أن العمليات التجارية في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري كانت تتم عبر طرق تجارية وموانئ برية تربط المدينة المنورة بغيرها من المدن الداخلية، والبلدان الخارجية.
4. أن السلع والبضائع التي كان يُتاجر بها في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري كانت متنوعة وتقتصر على ما يحتاجه أهل المدينة المنورة من المأكّل والملبس والمشرب والزينة.
5. أن الحياة التجارية كانت لها الأثر في الأحداث التاريخية؛ حيث إنها تنقل صورة المجتمع في حقبة من الحقب التاريخية وتطورها من زمن إلى زمن.

6. حرصت الدول والبلدان على توطيد علاقتها مع المدينة المنورة في القرن الثالث عشر الهجري؛ وذلك لمكانتها وعلو شأنها الديني والتاريخي.

التوصيات:

1. دراسة التاريخ الاقتصادي للمدينة المنورة عبر العصور التاريخية المختلفة، وبيان أوجه التشابه والاختلاف في كل عصر من العصور.
2. دراسة التطور التاريخي للحياة الاقتصادية في المدينة المنورة بين الماضي والحاضر.
3. دراسة العلاقة بين الحياة الاقتصادية والحياة السياسية للمدينة المنورة في العصور المختلفة.
4. دراسة إسهام اقتصاد المدينة المنورة في تطور الحياة العلمية والفكرية والمعيشية للمجتمع المدني عبر التاريخ.

الهوامش:

- (1) موسى الشريف، محمد بن حسن بن عقيل، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ - 2000م، 2/ 476.
- (2) القحطاني، حمد محمد، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز (-1297 1323هـ/ -1880 1905م)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 2009م، ص 96.
- (3) المديرس، عبد الرحمن مديرس، المدينة المنورة في العصر المملوكي (-648 923هـ/ -1250 1517م) دراسة تاريخية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 1422هـ - 2001م، ص 108.
- (4) ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، وضع مقدمته وهوامشه: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1408هـ - 1988م، ص 113-122.
- (5) موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية 2/ 477.
- (6) بوركهارت، جون لويس، ترحال في الجزيرة العربية- يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين، ترجمة وتقديم: صبري محمد حسن، مراجعة: محمد صابر عرب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2007م، 1/ 48، 49.
- (7) المصدر السابق 1/ 55.
- (8) بلول، مختار محمد، المدينة المنورة درة المدائن، دار بلول للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ - 2000م، ص 172.
- (9) غالي، محمد حسن، رحلة إلى المدينة المنورة دليل الوصول إلى زيارة الرسول، مكتبة سليمان الفليح، الرياض، سنة 2020م، ص 30.
- (10) بوركهارت، ترحال في الجزيرة العربية، 2/ 160.
- (11) الحربي، أبو إسحاق إبراهيم، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية، سنة 1401هـ - 1981م، ص 653.
- (12) الجزيري، عبد القادر بن محمد، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، سنة 1403هـ - 1983م، 2/ 1419.
- (13) السلیمان، علي حسين، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1981م، ص 126.
- (14) القحطاني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز، ص 293.
- (15) موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنورة 2/ 477.
- (16) مسجد السيدة فاطمة: هو أحد المساجد السبع التي تقع في شعب صغير شمال غرب جبل سلع، والذي كان مكان مراكز قيادة جيش المسلمين في غزوة الخندق. التمام، غازي بن سالم، رسائل في آثار المدينة المنورة، المدينة المنورة، النادي الأدبي، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ - 2000م، ص 53.

- (17) الخزرجي، عبد الله فرج الزامل، المدينة المنورة عاداتها وتقاليدها منذ عام 925 حتى عام 1409 هـ مطبوعات تهامة، جدة، الطبعة الأولى، سنة 1411هـ- 1991م، ص 38.
- (18) موسى، علي، وصف المدينة المنورة، (ضمن مجموع بعنوان رسائل في تاريخ المدينة- الرسالة الأولى)، قدم لها وأشرف على طبعتها، حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ص 42
- (19) المدد: مكيال، وهو ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما، وهو رطلان أو رطل وثلاث. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوقي، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، سنة 1426هـ- 2005م، ص 318. ويزن بالتقدير المعاصر (543) غراماً تقريباً. الشمري، نجلاء سويد إبراهيم صالح، المكاييل والأوزان الشرعية وما يعادلها بالأوزان المعاصرة، مجلة الأستاذ، العدد (203)، سنة (1433هـ- 2012م)، ص 1504.
- (20) سلم، أحمد بن سعيد، المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري- بحوث تاريخية واجتماعية واقتصادية وعمرانية وعادات وتقاليدها، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1414هـ- 1993م، ص 152.
- (21) والصاع: هو مكيال لأهل المدينة، يأخذ أربعة أمداد. ابن منظور، محمد مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، سنة 1414هـ، 8/ 218. ويزن بالتقدير المعاصر (2175) غراماً تقريباً. الشمري، المكاييل والأوزان الشرعية وما يعادلها بالأوزان المعاصرة، ص 1504.
- (22) الرايس: قرية من قرى بدر بالمدينة المنورة، وسكانه زيد وصبح من قبيلة حرب، وبها يقع ميناء الجار. آل جاسر، حمد بن محمد بن جاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، الرياض، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 2/ 617.
- (23) موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية 2/ 476.
- (24) الخزرجي، المدينة المنورة عاداتها وتقاليدها، ص 45.
- (25) غالي، محمد حسن، رحلة إلى المدينة المنورة دليل الوصول إلى زيارة الرسول، مكتبة سليمان الفليح، الرياض، سنة 2020م، ص 30، وسلم، المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري، ص 152، 154.
- (26) موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، 2/ 477.
- (27) موسى، علي، وصف المدينة المنورة، (ضمن مجموع بعنوان رسائل في تاريخ المدينة- الرسالة الأولى)، قدم لها وأشرف على طبعتها، حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ص 42
- (28) النتيفي، أمل أحمد، تأثير افتتاح قناة السويس على الحجاز (-1286 1333هـ/ -1869 1914م)، رسالة ماجستير بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، سنة 2020م، ص 61- 71
- (29) سلم، المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري ص 152.

(30) الخزرجي، المدينة المنورة عاداتها وتقاليدها، ص 36.

(31) العماري، سماح علي عبد الله، المجتمع والاقتصاد في الحجاز في العهد العثماني الثاني (-1256 1339هـ / -1840 1946م)، بحث منشور بمجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، العدد 6، ذو القعدة سنة 1442هـ / يونيو سنة 2021م، ص 149، 150.

المصادر والمراجع:

- (1) ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، وضع مقدمته وهوامشه: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1408هـ - 1988م.
- (2) ابن منظور، محمد مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، سنة 1414هـ.
- (3) آل جاسر، حمد بن محمد بن جاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، الرياض، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى.
- (4) بلول، مختار محمد، المدينة المنورة درة المدائن، دار بلول للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ - 2000م.
- (5) بوركهارت، جون لويس، ترحال في الجزيرة العربية- يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين، ترجمة وتقديم: صبري محمد حسن، مراجعة: محمد صابر عرب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2007م.
- (6) التمام، غازي بن سالم، رسائل في آثار المدينة المنورة، المدينة المنورة، النادي الأدبي، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ - 2000م.
- (7) الجزيري، عبد القادر بن محمد، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، سنة 1403هـ - 1983م.
- (8) الحربي، أبو إسحاق إبراهيم، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية، سنة 1401هـ - 1981م.
- (9) الخزرجي، عبد الله فرج الزامل، المدينة المنورة عاداتها وتقاليدها منذ عام 925 حتى عام 1409 هـ مطبوعات تهامة، جدة، الطبعة الأولى، سنة 1411هـ - 1991م.
- (10) سلم، أحمد بن سعيد، المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري- بحوث تاريخية واجتماعية واقتصادية وعمرانية وعادات وتقاليدها، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1414هـ - 1993م.
- (11) السليمان، علي حسين، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1981م.
- (12) الشمري، نجلاء سويد إبراهيم صالح، المكاييل والأوزان الشرعية وما يعادلها بالأوزان المعاصرة، مجلة الأستاذ، العدد (203)، سنة (1433هـ - 2012م).
- (13) العماري، سماح علي عبد الله، المجتمع والاقتصاد في الحجاز في العهد العثماني الثاني (-1256/1339هـ - 1840/1946م)، بحث منشور بمجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، العدد 6، ذو القعدة سنة 1442هـ / يونيو سنة 2021م.
- (14) غالي، محمد حسن، رحلة إلى المدينة المنورة دليل الوصول إلى زيارة الرسول، مكتبة سليمان الفليح، الرياض، سنة 2020م.

- (15) غالي، محمد حسن، رحلة إلى المدينة المنورة دليل الوصول إلى زيارة الرسول، مكتبة سليمان الفليح، الرياض، سنة 2020م، ص 30، وسلم، المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري.
- (16) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوقي، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، سنة 1426هـ - 2005م.
- (17) القحطاني، حمد محمد، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز (-1297 1323هـ/ -1880 1905م)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 2009م.
- (18) المديرس، عبد الرحمن مديرس، المدينة المنورة في العصر المملوكي (-648 923هـ/ -1250 1517م) دراسة تاريخية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 1422هـ - 2001م.
- (19) موسى الشريف، محمد بن حسن بن عقيل، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ - 2000م.
- (20) موسى، علي، وصف المدينة المنورة، (ضمن مجموع بعنوان رسائل في تاريخ المدينة- الرسالة الأولى)، قدم لها وأشرف على طبعتها، حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى.
- (21) موسى، علي، وصف المدينة المنورة، (ضمن مجموع بعنوان رسائل في تاريخ المدينة- الرسالة الأولى)، قدم لها وأشرف على طبعتها، حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى.
- (22) النتيقي، أمل أحمد، تأثير افتتاح قناة السويس على الحجاز (-1286 1333هـ/ -1869 1914م)، رسالة ماجستير بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، سنة 2020م.

مقاومة حكم الاستعمار الثنائي في دارفور (1898 - 1924م)

محاضر - قسم التاريخ - جامعة بحري

أ.شيرين إبراهيم النور صديق

مستخلص:

تشير جدلية الأزمنة رؤى مختلفة عند التأريخ لحدث الحرب العالمية الأولى بوصفه حدثًا مركزيًا احتل جغرافيا أوروبا، بالمقابل فقد استتبعته تحولات هامة في مسار مقاومة الاستعمار ارتسمت في جغرافيا أفريقيا، وتحديداً في بلاد السودان، لذلك تبني هذه الورقة إشكال دراستها عليها، للتعريف بحدث مركزي (الحرب العالمية الأولى) إلا أنه أثر في تشكيل أحداث تاريخية ذات أهمية (مقاومة الاستعمار) ، وتتبع مدى التحامه في مسارها وتشكيل دوافعها، وإلى أي حد يمكننا فعلاً التأريخ للمقاومة في دارفور، بالأخذ في الاعتبار عوامل التحول التاريخي المختلفة التي كثفت حدث الحرب موسعة مداه إلى فضاء جغرافي وثيق الصلة بتكالب أوروبا على استعمار إفريقيا وإعادة تقسيم العالم ليخضع لشروط الإمبريالية العالمية ، وعلاقاتها التي هندست حركة الاستعمار وأخضعت الشعوب المستعمرة ، إذ استخدمت القوة العسكرية بصورة أكثر ضراوة لكسر شوكة المقاومة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام 1916م .

Resistances Against The Colonial of Condominium Rule in Darfur

Shereen Ibrahim Alnour Siddeg,- Lecturer, Bahri University

Abstract:

The dialectic of long duration rise up a different visions when we historicising the event of the First World War as a central event that occupied the geography of Europe. First World War), but it influenced the formation of important historical events (resistance to colonialism). The paper traces the extent of its cohesion in its course and the formation of it motives, and to what extent can we actually date the resistance in Darfur, taking into account the various historical translation factors that intensified the event of War, expanding its influence to external geographical space but at the same time is closely related to Europe's competition to colonised Africa and re-divide the world to submit to the conditions of global imperialism, , the paper intended to reveal the power

relations which engineered the colonial movement and subdued the colonised peoples, as it used military force more fiercely to break the thorn of resistance after the outbreak of the First World War in the year 1916 AD.

مقدمة:

تحاول هذه الورقة كتابة تاريخ فصلٍ مهم من فصول المقاومة ضد الاستعمار الثنائي عبر إعادة تركيب وتحليل مشهدية حدث الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في أوروبا وفي حدود جغرافية بعيدة عن السودان إلا أنها تزامنت مع نهوض حركة المقاومة في دارفور في أعوام الحرب التي استمرت بين الأعوام (1914 - 1918). فقد أعلن السلطان علي دينار موقفه من الصراع بين القوى العالمية ومساندته لدول المحور التي كانت من بينها الإمبراطورية العثمانية، منهياً بذلك سياسة المهادنة التي اتبعها منذ انسحابه من معركة أم درمان، ونجح في توطيد حكمه في سلطنة دارفور عند عودته إليها في العام 1898 م. تهدف الورقة إلى كشف دوافع السلطان على دينار في مجابهة الاستعمار إبان الحرب مما أدى إلى هزيمته، فأنهت السلطة الاستعمارية للحكم الثنائي القائمة بذلك حقبة طويلة من تاريخ السودان الوسيط تتداخل مع الحقبة الحديثة التي يتفق أغلب المؤرخين على استهلالها بغزوة محمد علي باشا للسودان في العام 1821م، لذلك نستند من أجل تفسير العوامل الأساسية المتداخلة التي شادت مسار حركة التاريخ توصيف وتحليل الأحداث في فترة زمنية طويلة تستهل بالعام 1821، ونتابعها في تولد أحداث الحرب الداخلية في العام 2002 م لمتابعة التغيرات في زمن ما قبل وما بعد الحرب ومحاولة تفسير الصراع السياسي الراهن من خلال إبراز نموذج من نماذج المقاومة السودانية للاستعمار الثنائي (مقاومة دارفور) التي لم تندمج مع حركة المهديّة، وبالتالي أسقطت مشروعها الوطني ذا الرؤى الدينية، محاولين تعريف وتقييم علاقة سلطنة دارفور مع البني السياسية المختلفة التي عاصرتها آنذاك «الحكم التركي - الدولة المهديّة - الحكم الثنائي»، وكيف تأسست هذه العلاقات؟ وما الأسباب التي دفعت إلى تغييرها؟.

استندت الورقة إلى عدد من المصادر المتنوعة منها: الوثائق الرسمية المودعة بدار الوثائق القومية في الخرطوم، وتشمل عدد من التقارير الرسمية، والخطابات الخطية المتبادلة بين علي دينار «سلطان دارفور - قائد المقاومة» وبين الحاكم العام، ومفتش عموم السودان، وعدد من الزعامات القبلية في دارفور وهي مودعة في قائمة (Sudan Intelligence). كما استندت الورقة إلى عدد من الكتابات الإداريين البريطانيين.

استهلال وتأطير نظري :

يُشدّ الدراسة منحىً سردي، لارتباطها بالمدى الطويل، وتداخل موضوعها ما بين عودة الحدث ممثلاً في الحرب وتقاطعها مع المقاومة، لتحاول الإجابة عن جدوى استعادة الحدث المركزي (الحرب) الذي ترتبت عليه أحداثٌ أخرى تقاطعت معه، فغيّر اتجاهها في مجرى حركة

التاريخ، التي تموج بالأحداث المعبرة عن القطيعة والتحول لي أشكال المقاومة والقوى الممثلة لها ، كما اتسمت مقاومة حكم الاستعمار الثنائي في دارفور بالاختلاف عن أشكال المقاومة الأخرى التي قامت قبلها، من حيث استقلال السلطان علي دينار بحكم وإدارة سلطنة دارفور. لذا تحاول الورقة إعادة إنتاج تاريخ المقاومة في دارفور وفق مفاهيم جديدة لم تستقيم مناهجها بعد فلا تخرج هذه الكتابة عن كونها محاولة للتمثل بالمنهجيات الجديدة، تلك التي شادتها مدرسة الحوليات، وذلك من خلال النظر للمقاومة في مدى زمني طويل يبدأ مع الحرب وينتهي في التاريخ الراهن .

يمكننا أن نعرف التاريخ السياسي بوصفه دراسة لكل مظاهر الماضي التي لها علاقة بالتنظيم الرسمي للسلطة في المجتمع وتتبع علاقاتها، والتي تعني الدولة عند أغلبية المجتمعات الإنسانية في التاريخ المدون، ويشمل بذلك السياسات التي تفرض من قبل الدولة الاستعمارية وعلاقاتها مع القوى المختلفة.⁽¹⁾

من نظرة أولى يبدو أن هذا التعريف غير متفق مع ما أرسته الحوليات في نفيها للتاريخ السياسي منذ البدء، إذ أن السمة الرئيسية لها كانت _نفي السياسي_ الذي يوازي الحدث وما يرتبط به من سرد تاريخي له ، بالإضافة إلى أن الأحداث السياسية تتميز بالسرعة النسبية في تحولها مقارنة بالتحولات في البنى الاجتماعية والثقافية بطيئة السرعة ، وتجنبنا بذلك الحوليات التاريخ السياسي في عصرها، ويؤكدده (الأمم الطويل) العزيم على التاريخ الجديد ، أو كما عبر عنه فرانسوا دوس «...أمد طويل خال من السياسة. » ، وقد جمع جاك جوليارد الحجج لمقاضاة التاريخ السياسي، إنتهى فيه إلى أنه تاريخ وقائعي. مع ذلك فالبعد السياسي لم يتم تهميشه ولا تحويله عن مكانه.⁽²⁾ وبذلك نعمل على توظيف منهج مؤرخي الحوليات بتطبيقه عند تحليل حدث الحرب كحدث مركزي وتداعياته على تفعيل الدوافع الكامنة في سياق جغرافي مغاير لاوربا بنهوض المقاومة كحدث متصل معه زمنياً، ولأنهما سردين ممتدان إلى الراهن وفق مستويات متباينة ، تحاول الورقة إقامة تحليل ورصد حدثها المركزي (الحرب) داخل مداها الزمني القصير، لتتبع العوامل المؤثرة في تغيرات أوضاع المقاومة ، وكيف شاد الحدثان سردية تاريخ السودان السياسي الحديث والمعاصر وكيف تم التعبير عنهما في المصادر المكتوبة لتلك الفترة ، وكيف ارتد الحدثان في رهن السودان السياسي ، فقد دفع قيام الحرب العالمية الأولى إلى تغيير السياسات الاستعمارية وكيفية إدارتها لحكم السودان وترسيم حدوده السياسية التي شكلت الدولة الوطنية على ماهي عليه الآن .

اصطلح غالبية المؤرخين على تسميته المقاومة السودانية للاستعمار الثنائي بتسميات متعددة من بينها تعريف مقاومة دارفور بالمقاومة الإقليمية وتطبق هذه الإشارة على التعريفات التي اطلقت على حركات المقاومة التي انتظمت في العقد الأول لتأسيس الاستعمار -1908 1898 م، فقد مثلت هذه الحركات المتلاحقة المرحلة الأولى في مقاومة الاستعمار فأثت معبرة عن الرفض لإقامة حكم استعماري مرة أخرى، إلا أنها لم تتوحد. وتنتهي هذه المرحلة بحركة عبد القادر

ود حبوبة في العام 1908 م . كما أطلق بعض المؤرخين اسم المقاومة القبلية على المقاومة التي انتظمت بين مجموعات النيلية (الدينكا، النوير، الشلك) في الحدود الجنوبية (جمهورية جنوب السودان حالياً) والتي قامت في أزمنة متقطعة .⁽³⁾

تعكس مقاومة السلطان علي دينار مرحلة جديدة وركيزة أساسية لرؤية وإعادة تحليل تاريخ مقاومة الاستعمار عند أغلب المؤرخين السودانيين. وتكمن أسباب انتخاب هذا النموذج في العلاقة الجدلية القائمة بين تأريخ المقاومة واختيار مصادرها المكتوبة ونقدها وتحليلها لإنتاج قراءة جديدة عن تاريخ المقاومة والمساهمة في إزالة بعض التعقيم القائم في تاريخنا الحديث عموماً، فما زال تاريخ المقاومة يحتاج لإعادة قراءته بعيداً عن التأطير النمطي الذي أطلق تعريفات اجرائية لأشكال المقاومة المتنوعة مطلقاً عليها تسميات تمت استعارتها من الوثيقة الرسمية ، أو نتيجةً للتحليلات الأفقية في قراءة دوافع المقاومة وتفسير العوامل المتشابكة ، فحجبت بذلك تلك التعريفات الاجرائية أعمال التحليل لدوافعها وطبيعتها علاقتها مع القوة الاستعمارية وموقف قيادتها من مسار الأحداث الخارجية وتأثيرها على علاقات القوى السياسية واستقرار سلطتهم ، وبالتالي أن الورقة تقوم بتقسيم المقاومة إلى مراحل ، وتعتبر المقاومة في دارفور بداية لمرحلة ثانية ، تتداخل فيها مع ثورة 1924 التي اندلعت بعد أعوام من سقوط السلطان علي دينار في 6 نوفمبر 1916م.

لعبت الحرب عاملاً حاسماً في نهوض المقاومة في دارفور ، فقد غير اندلاع الحرب مسار سياسات السلطان علي دينار المهادنة منذ عودته إلى حكم دارفور ، ويتضح ذلك من خلال خطابه المودعة في دار الوثائق القومية بالخرطوم ، وقد تحولت سياسة السلطان جذرياً عندما رفض دفع الضريبة المفروضة عليه من الإدارة الاستعمارية ، وأعلن فيما بعد انضمامه لمعسكر دول المحور التي دعمتها مراسلاته للسلطان العنصر خديوي مصر ، وكذلك مراسلاته السنوسي في ليبيا ، فقد دفعت الحرب السلطان إلى تغيير سياسته تجاه الإدارة الاستعمارية ، وخط بذلك التغيير مصيراً مختلفاً للإقليم وزعاماته، كما تزامن -حدث- المقاومة زمن الحرب مع تلك التغييرات التي اتت نتيجة لها ، فمن جانب آخر بدأت حكومة السودان في رسم سياسات مختلفة تتماشى ومتغيرات الأحلاف العسكرية ، وتظهر من خلال ترسيم الحدود الجغرافية للسودان بعد مفاوضات معقدة مع الفرنسيين ، وهذا أثر بدوره في إدخال الإقليم بحدوده الجديدة في منظومة علاقات معقدة مبنية على مصالح القوى الاستعمارية (بريطانيا ، فرنسا) ولعبت فيها علاقة التبعية السياسية للسلطان العثماني التي الرائد هدلستون وإنهاء حكمه ، ويكاد يتلاشى حدث المقاومة في العام 1924م في دارفور ليندلع مرة أخرى في الخرطوم وبقية المدن لذلك ، فقد أرسى الحرب تحولات في طبيعة المقاومة المتأثرة بالحدث المركزي «الحرب» حيث أنه يمثل معبراً مفصلياً لتاريخ السودان المقاوم.⁽⁴⁾

غزو والي مصر العثمانية على سلطنات السودان :

قوض غزوة محمد علي باشا والي مصر العثمانية * حكم سلطنات السودان الإسلامية التي شاهدها مطلع القرن السادس عشر، والتي مثلت تجربته المحلية في نظم الحكم في فترة تاريخ

السودان الوسيط والمستمدة من تجارب المجتمعات السودانية وأنظمتها السياسية التي عكست تنوعها الاجتماعي والثقافي، رغم هشاشة الوحدة السياسية بين هذه السلطنات التي عملت كل منها على توسيع حدودها السياسية على حساب جاراتها، فتشكلت تحالفات سياسية في غرب السودان بين سلطنة دارفور ومملكة كردفان لضم سلطنة سنار في فترات متباعدة. أعادت الحكومة الاستعمارية في عهد محمد علي وأسرته تشكيل المجتمعات السودانية وأنظمتها على مستوى الأقاليم والمحليات — النبضة الأخيرة لمؤسسات سنار التقليدية — وحددت قواعد جديدة لإنشاء مؤسسات قضائية تتبع أحكام الشريعة الإسلامية، وأدخل نظام جديد للضرائب، كما كانت تجارة الرقيق إحدى ركائز البنية الاقتصادية والسياسية.⁽⁵⁾

روض الأتراك القادمون من مصر أهل السودان لتسويق امتلاكه دينياً، فاصطحبت الحملة معها ثلاث علماء من المذاهب الثلاثة (الحنفي - الشافعي - المالكي)، اتبع السودان المستعمر الفقه الحنفي على غير ما كان سائداً في الممالك الإسلامية التي ساد فيها المذهب المالكي، وحمل بذلك غزو مصر العثمانية نذر تحول جوهر في العلاقة السائدة آنذاك بين الدين والدولة. إلا أن هذا الأثر كان بطيئاً في سلطنة دارفور التي حافظت على استقلالها السياسي حتى العام 1478م بغزو الزبير باشا رحمة المنصور وهو من التجار الجلابة*، ففتحها وقضى على سلطانها إبراهيم قرض في معركة منواشي بجيشه المكوّن من الرقيق.⁽⁶⁾

بني «جديدة في سلطنة دارفور»

وسع استعمار مصر العثمانية طوال فترته التي بلغت أربعة وستون عاماً منهجاً استبدادياً وقمعاً وحشياً، وفي بادرة نادرة يتفق سائر الرحالة والدارسين اللاحقين للحقبة التركية في السودان على أن النظام الضريبي الاستعماري، كان فاحشاً في مطالبة، استبدادياً اعتباطياً في تقسيم العبء الضريبي، ووحشياً وفاسداً في طريقة جمع الضرائب.⁽⁷⁾

أن الذاكرة الشفهية في السودان لم تزل محتشدة بصور عنف الغزو العثماني المصري الذي اصطاح على تسميته بالغزو التركي عند عدد من المؤرخين، كما خلف اصطليد الرقيق الذي ازدادت ضروته في عهد تلك الإدارة الاستعمارية آثاراً سلبية، فأضعف القوى البشرية، وفّت نسيج المجتمع السوداني. رغم أن تجارة الرقيق لم تكن حدثاً طارئاً على إقتصاديات السودان، بل كان سلاطين الفور من الموردين الرئيسيين لها إلى مصر، فقد عمل تحت السلطان عدد من الوكلاء التجاريين إلى جانب خبراءه وخدامه المسؤولين عن قوافله المارة بدرب الأربعين طريق التجارة الرئيسي في السلطنة، والممتد عبر الصحراء الكبرى إلى مصر. إلا أن هذا الوضع اختلف مع مقدم غزو مصر العثمانية، فأصبحت الحكومة الاستعمارية منافساً لسلطنة دارفور في تجارة الرقيق؛ فقد غزا والي مصر السودان بحثاً عن الرجال والذهب، وتعددت نتيجة «لذلك علاقاتها؛ بقيام تحالفات إقتصادية بين القوى العسكرية التركية والتجار الأوروبيين من جانب ووكلائهم من التجار الجلابة».⁽⁸⁾ وتدفقت جنوباً، مجموعات كبيرة من الأوروبيين والتجار من شمال السودان بعد فتح منابع النيل الأبيض للملاحة في مستهل العام 1581م، وأسست زرائب منتشرة حول مساحات واسعة لأول مرة،

كنظام احتكاري للمناطق، وعقد التجار تحالفات مع الزعماء المحليين لتمويل زرائبهم، ونشاء بذلك تنافس في بحر الغزال، التي رأي فيها سلاطين الفور إمتداداً طبعياً لسلطتهم.⁽⁹⁾ ولإيقاف مد الحكومة الجديدة فقد رسخ سلاطين الفور علاقاتهم مع التجار الجلابة لكبح نفوذ التجار الأوربيين، فمنحوا الجلابة امتيازات سياسية بالسماح لهم بالمشاركة في مجلس السلطان الذي كان حكراً على نبلاء الفور وبعض الفقرا (الفقهاء) فأقاموا علاقات بالزواج من الأسرة السلطانية، ورسخت هذه العلاقات الطبقة التجارية الجديدة، إلا أنها هزت من التحالف الاقتصادي السابق بين الزغاوة وسلاطين الفور المكوّن بنفس النهج.⁽¹⁰⁾

كما استعان السلطان محمد الحسين بالرزقيات من قبائل البقارة لخلق نوع من توازن القوى، فعملوا بتوجيه منه على نهب القوافل التجارية الغير تابعة للسلطنة وحلفائها، لضرب التجار الخرطوميين (الجلابة الجدد) المواليين للحكومة التركية، التي لم تغضبها أعمالهم بقدر ما أغضبت التجار حيث كانت تلك الغارات المتتالية تهديداً لنموهم الاقتصادي، واقتصر نشاطهم فعلاً على الطرق النيلية كبديل لدرب الأربعين الممتد في حدود دارفور المتحكم فيه السلطان. لذلك وجهوا ضربة موجعة للسلطنة بقتلهم للوزير الأعظم ومقدم الجنوب آدم بوش⁽¹¹⁾.

بدا واضحاً أن إقتصاديات السلطنة المعتمدة على احتكار تجارة الرقيق، والتحالفات القبلية غير الثابتة قد أدخلتها في شبكة من العلاقات المعقدة كما غيرت علاقات مؤسسة الرق بعض ملامح تراتبية النظام الطبقي المعمول بها في السلطنة والمعتمد على أئنية مغلقة لعنصر الفور المكوّن الرئيسي للطبقة الحاكمة؛ فقد ملك السلاطين عدد لا بأس به من الجواري، صعد أبنائهن فيما بعد إلى السلطة، وزاد ذلك من تمكين فئة الارقاء، التي اعتلى أفراد منها هرم السلطة بما فيهم آدم بوش وزير السلطنة المقتول.⁽¹²⁾

أكمل انهيار السلطنة بغزو الزبير لها كما أسلفنا، ويؤكد هذا الغزو أن ضم دارفور دفع به طموح الزبير الذي قدم خدماته العسكرية للحكومة، وكان هدفه احتكار منابع موارد الرقيق التقليدية التي كان ينافسها عليها سلاطين دارفور، فألحقت سلطنة دارفور في العام 4781م بذلك في ظل الحكم الاستعماري العثماني المصري، وكانت النتيجة الحتمية لذلك ازدياد حملات صيد الرقيق ونفوذ تجار الرقيق بالخصوص فئة الجلابة، بالمقابل لجأت الطبقة الحاكمة التي تمثلها (الكيرا) إلى «جبل مرة» موطنها الأصلي، لتقود مقاومة مستمرة استنزفت قوة المستعمر العسكرية ووكلائه من التجار الذين كانت لديهم جيوش مزودة بالسلاح الناري، وعرفت هذه الفترة في التراث الشفهي الدارفوري «أم كاويكة» بمعنى سنوات الجفاف. تبادل خلالها ست سلاطين من الفور الحكم وقيادة المقاومة في سلطنة دارفور، وعرفوا بسلاطين الظل، وللمفارقة حاربت المهديّة سلطنة دارفور وقام الخليفة عبدالله التعايشي بإلزام السلطان علي دينار البقاء في أم دمان وكان في وضع أشبه منه بأسير الحرب.⁽¹³⁾

سياسات تحديثية متصدعة:

تساعد التكالب الاستعماري بين الدول الرأسمالية خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر، واتخذ شكل نشاط تبشيري وتجاري وعلمي. وأصبحت القارة الأفريقية الوجهة الرئيسية

لدول اوربا الاستعمارية للسيطرة على مواردها الخام وتلبية احتياجات السوق العالمية ، كما كانت الرأسمالية محكومة بالحفاظ على توازن القوى في منطقة الشرق الأوسط، فكان أي تدخل لنهش أطراف الإمبراطورية العثمانية المتصدعة سيخل بذلك التوازن، لذلك أُستبعد في البداية المساس بسيادتها في مصر والسودان. لكن سرعان ما أقحمت مشاريع التحديث مصر في ديون بفوائد عالية، تركتها في رحمة مدينيها «بريطانيا وفرنسا»، فضغطت الدول الدائنة على الخديوي إسماعيل بإيقاف تجارة الرقيق، فأعلن في أغسطس 7781م بوضع حد لها داخل الأقاليم المصرية، وحدد العام 9881م ميعاد انهاءها، مما يدل على تأثير وتغلغل هذه التجارة في بنية الدولتين المستعمرة والمستعمرة.⁽⁴¹⁾

اعتمدت مصر لتنفيذ سياستها الجديدة على الجنرال تشارلز غوردون، والذي بدوره استعان في تنفيذ مهمته بمعاونين أوروبيين وسودانيين إداريين، وعزل عدد من الموظفين الأتراك، وعند مجيئه للمرة الثانية كحاكم لعموم السودان (-1879 1877 م) ، جرد حملات ضد قوافل تجارة الرقيق في بحر الغزال وكردفان ودارفور، وأمر قبائل تلك الجهات من البدو بالتعدي على قوافل التجار الجلابة، وأطلق يد القبائل البدوية في الهجوم فولد عنفاً قبيلاً «تمدد في الذاكرة. كما لم تدعم سياسات التحديث أوضاع الحكم الاستعماري التي أصبحت أكثر اضطراباً، وذلك لسيطرة التجار الجلابة المدعومين ببعض قبائل البقارة على طرق القوافل، ولم تفد قراءة غوردون واقع الصراع القبلي في مساعدته إجتثاث هذه التجارة.⁽⁵¹⁾

كانت القوى المحلية التي استعان بها غوردون متورطة في منظومة العلاقات والمصالح الاقتصادية المعقدة لمؤسسة الرق، فمحمد خالد زقل وهو من الجهادية السود والذي عينه مديراً على دار دارفور كان من الجلابة المسترقين ، وكذلك الياس باشا أم برير مدير الأبيض، وسيلعب هؤلاء إلى جانب غوردون أدواراً بارزة في مجرى الأحداث عند اندلاع الثورة المهديّة. فالصورة الواضحة كانت انفجار الصراعات القبلية في المديرية المتأثرة بتجارة الرقيق التي لم تتجح الحكومة التركية في إيقافها، أو إقامة دولة متماسكة سياسياً واجتماعياً في السودان.⁽¹⁶⁾

تمظهر الحداثة في النظم الاستعمارية للقرن التاسع عشر الميلادي :

ألقت سياسات التحديث التي تم الشروع في تنفيذها في مصر إلى تعقيد الصراعات في السودان ، إذ أن والي مصر العثمانية محمد علي ومن خلفوه في حكم مصر قاموا باتباع سياسات استعمارية من أجل تحديث بنية اقتصاديات مصر وربطها باقتصاديات العالم الرأسمالي السائدة، وكانت أولى مراحل العملية التحديثية هي استعمار السودان لتوفير الموارد الزراعية والمعدنية الكافية إلى جانب الجنود عبر حملات صيد الرقيق التي توسعت في فترة الاستعمار العثماني المصري. وعندما هبت الثورة المهديّة في العام 1881م ، وأقامت نظام حكم أوتوقراطي في أمد رمان ، فقد وورثت الطبقة الوسطى التجارية سلطة الاستعمار العثماني المصري ، الا أنها ورثت أيضاً صراعاتها السابقة حول مصادر التجارة.⁽¹⁷⁾

تمثل حركة المهديّة إحدى نماذج نجاح الإصلاح الديني الذي ساد منذ بدايات القرن التاسع عشر في بلاد السودان، والذي مثلته حركات الجهاد الاسلامي من ناحية، ومن ناحية أخرى

يمكن اعتبارها نموذج محلي يفي تطلعات النخب المحلية التي مثلت قيادات تلك الحركة في نوع الحكم الذي ترغب في إقامته على مجتمعاتهما ، ويوضح انكماش حدود الإمبراطورية العثمانية التي عجزت عن إقامة إصلاحات سياسية تلبي تطلعات النخب المحلية والطبقة الوسطى التي فت كنتيجة للازدهار النسبي للحركة التجارية رغم تأخر نمط البضائع وذلك لارتباطه بوسائل الانتاج التي ما زالت تقليدية في طبيعتها ، إذ لم تدخل بطبيعة الحال وسائل انتاج جديدة كتلك التي ظهرت في أوروبا نتيجة للثورة الصناعية ، أما من الناحية السياسية فقد خضع السودان للاستعمار ، وأصبح أحد هوامش حدود الإمبراطورية العثمانية التي اتجهت تدريجياً نحو تترك السطة كوسيلة للتحديث والإصلاح مما أدى إلى تفكك خارطة الإمبراطورية العثمانية التي تحولت بحلول عام 1924 إلى دولة تركيا .⁽⁸¹⁾

كما تزامن قيام الثورة المهديّة مع التحولات السياسية والاقتصادية في العالم. خاصة وأن مصر كانت قد وضعت تحت الحماية البريطانية في العام 2881م. وجدت بريطانيا نفسها في مواجهة الثورة من عدة اتجاهات، وقادت مواجهاتها لموت أبطال فيكتوريون لهم إنجازاتهم المدوية في أقوى جيش استعماري عرفه العالم في ذلك الوقت⁽⁹¹⁾

تباينت مواقف السياسة البريطانية تجاه السودان ، ففي البداية كانت ترى أنه مشكلة مصرية، ولكن تغيرت هذه النظرة بعد فشل خديوي مصر في المحافظة على مستعمرته، فأقدم البريطانيون على المشاركة في الورطة المصرية بعد هزيمة الكولونيل هكس وإبادة حملته في سهل شيكان في كردفان عام 3881م، حينها قام البريطانيون برسم سياسة جديدة تقتضي إخلاء الحاميات من السودان ونصحو الخديوي بالجنرال غوردون من أجل تنفيذ تلك المهن إخلاء حاميات الخرطوم، أرسل الجنرال جراهام لفتح طريق الصحراء من الشرق بين بربر وسواكن. فالتحم مع قوات المهديّة «الهندوة» ووصفهم قائلاً: «... أن مجموعة ضخمة من الوطنيين جاءت كسيل متدفق وهجمت بعزيمة لا تلين على كتيبة اليوركشير والأنكشيرز مما جعل المربع ينهار ويتخبط في فوضى تامة. وقد تمكن العدو من الإستيلاء على مدافع لواء البحرية...» وكانت هذه أول مفاجأة للعسكريين البريطانيين، فقد قاتلت قوات الأنصار بقيادة عثمان دقنة ونجحوا في ما أخفق فيه الجنود الفرنسيين والروس على السواء وهو إختراق المربع البريطاني الحقيقة التي يتذكرها عنهم خصومهم.⁽²⁰⁾ وبينما انسحب جراهام بقواته إلى القاهرة، كان الجنرال شارلس غردون قد أحكم عليه الحصار في الخرطوم من قبل قوات المهدي، وأصبح الرأي العام البريطاني مهتماً بمصره، مما دفع الحكومة لإرسال حملة إنقاذ بقيادة جيرانت وليزلي مساعد قائد الجيش البريطاني وصديقه القديم، الذي وصل بعد يومين من سقوط الخرطوم ومقتل غردون على أيدي الأنصار. وكتب السكرتير الخاص للملكة إلى مندوب مصر السامي واصفاً رد فعل الملكة على مقتل غردون بالآتي: (... أن الملكة قد مرت بحالة نفسية فظيعة إثر سقوط الخرطوم وقد مرضت بالفعل.. كانت شاحبة ترتعش وقالت لزوجتي التي أذهلها منظرها: «فات الأوان.. فات الأوان» .⁽²¹⁾

ما بين هكس وغردون مثل السودان مقبرة للعديد من أبطال قادة الجيش الفيكتوري جثمت ذكراها عبء ثقيلاً على أكتاف الساسة البريطانيين، الذين كانوا مذهولين من انتصارات الأنصار عاريي الأقدام، الذين هاجموا بالرغم من المدافع والرشاشات ونيران البنادق وقتلوا عدوهم يدأ بيد، فأرخوا ملحمة شجاعة لم تنسى. وقد قام الشاعر الإنجليزي كبلنغ الأشهر آنذاك بتخليد الهدندوة البواسل في قصيدة عبرت عن نظرة الجنود البريطانيين لأولئك المقاتلين يقول فيها. أرفع أليك التحية يا الفزى وزى وأنت في ديارك هناك في السودان.

أنت مع كونك هزيل وجاهل إلا أنك محارب من الطراز الأول.

التحية لك أيها الفزى وزى بشعر رأسك الخشن الأشعث الهائش.

أيها العظيم، الأسود، المعدم لأنك حطمت المربع البريطاني.⁽²²⁾

اغتراب الدولة الوطنية في السودان:

نجحت الثورة المهدية في حالة استثنائية من مثيلاتها من حركات الإصلاح الديني في العالم العربي في تكوين دولة وطنية في السودان وفق تطلعات نخبها القيادية آنذاك الفترة (5881-8981م) ومع أن الدعوة المهدية تمثل بعداً في التراث الشيعي، إلا أن ذلك الفهم كان غائباً عن الذهن السوداني المتدثر بإسلام تمتزج فيه رؤى كرامات الأولياء بتعاليم الدين المبهمة لديهم، فكان مفهوم الإصلاح في هذه الدعوة مختلطاً بما هو سائد، إلا أنها ومع نجاحها المتصاعد اصطدمت رؤيتها وتعاليمها التي صيغت في إنذارات المهدي بالاسلام الشعبي الذي كان سائداً في المجتمع السوداني ولم يكن ممثلاً في نسخة واحدة، إلا أن المهدية فرضت منهجاً ورؤية واحدة لما ينبغي أن يكون عليه الإسلام، حيث اعتبرت أن كل من لم يعمل بها كافراً.⁽²³⁾

في نهاية العام 2881م، كان نصيب إقليم دارفور الخضوع للثورة المهدية، بتسليم مديره النمساوي رودلف فون سلاطين- المعين من غوردون سابقاً - وأصبح عامل المهدي في الإقليم لمحمد خالد زقل، وصارت قبائل البقارة وبالأخص الرزيقات القوة الضاربة للمهدي في دارفور، إلى جانب الجلابة، والجهادية السود «فرق الارقاء» وقد اعتمد عليهم فيما بعد الخليفة عبد الله التعايشي في إدارته بعد تخلصه من تأثير المجموعات القادمة من الوسط والشمال تدريجياً، وكذلك تجار الرقيق من الجلابة وعمل على احتكار دولته لهذه التجارة التي تحولت أيضاً إلى أداة إخضاع سياسية للقبائل والفئات المعارضة المهدية.⁽²⁴⁾

أحاط الخليفة نفسه بأهله من التعايشة، وقلدهم مناصب الإدارة والقضاء الذي لم يحتكم للشريعة الإسلامية بقدر ما احتكم على تشريعات المهدي، والحضرة النبوية، التي كانت تأتي للخليفة في شكل تعاليم من المهدي أو الخضر، ولمزيد من السيطرة فقد اعتمد سياسة التهجير القسري لجميع قبائل دارفور وأمرها بالهجرة إلى أم درمان التي فازت بزعماء القبائل. الموالين والمشكوك في ولائهم، وسماهم الخليفة بالمهاجرين. وفي الواقع كانوا رهائنه. وكان من بينهم شخصيتان سوف تبرز في سياق الأحداث اللاحقة هما سلاطين حاكم دارفور السابق وعلي دينار وهو من سلالة الكيرا سلاطين الفور الذين هجرهم قسراً الخليفة إثر اندلاع معارضتهم بقيادة

يوسف ابن إبراهيم قرض، الذي تم قتله ، وأرسل عثمان آدم (عامل الخليفة) رأسه في احتفال إلى أم درمان .⁽²⁵⁾

استمر التهجير في عهد عثمان آدم عامل الخليفة في دارفور فكادت أن تخلو من السكان ، ولم يكتف الخليفة باستقدام زعامات الفور، بل أمر جميع قبائل البقارة بالهجرة، وكانت غير راضية عن هذه السياسة وسرعان ما دخلت في موجة عصيان لا تهدأ، فنار الرزاقات بقيادة زعيمهم مادبو الذي لاقى نفس مصير السلطان يوسف، وتسربت الثورة القبلية ، فلجأ عثمان آدم أخيراً للتقاليد القبلية المرعية، فدعا الزعامات القبلية لاجتماع قبلي في دارا وعدهم فيه بتأمين أرواحهم، وأخيراً هدأت دارفور التي كانت طوال عهد المهديّة داخل الأحداث ، خارجه عن الولاء. وأفقرت جراء حروبها المتواصلة. كما زادت المجاعة الكبرى التي ضربت السودان أوضاعه سوءً وذلك في العام (1881م) وحدثت نتيجة الجفاف وعدم فيضان النيل، إلى جانب الحروب المتواصلة التي انشغل الناس بها عن الزراعة، وما فاقم الوضع سياسة الهجرة القسرية إلى أم درمان، وتناقصت نتيجة للمجاعة المؤن الغذائية لقوات الأنصار فأصبحت تنهب للحصول علي الأغذية وبالأخص في دارفور، حيث لجاء السكان إلى جبال الميّدوب، ومرة، وكردفان، مما زاد من كراهية حكم الخليفة القائم على القهر.⁽²⁶⁾

مثلت تجربة الدولة (الوطنية) في حقبة السودان الحديثة ونقصد بها دولة المهديّة ، مستندين في ذلك لتعريف الغالبية العظمى من المؤرخين السودانيين ، مثلاً الدولة الوطنية حالة اغتراب بين غالبية القوى الاجتماعية والدينية والاقتصادية وبين القيادات التي امسكت بزمام سلطتها ، بل ويمكن الاستنتاج إلى أنهال مثلت حالة ردة سياسية بفشلها في إقامة نموذج يناسب تطلعات جميع القوى الاجتماعية ويؤسس لعقد اجتماعي متوافق عليه ليزر أساس الدولة الوطنية بالمقارنة مع معالم التطور النسبي في فترة السلطنات الإسلامية.

الاستعمار الثنائي وتمثل الذاكرة الثأرية:

وصف الكولونيل هيربرت ستيوارت الذي كان من ضمن ضباط حملة إنقاذ غوردون الجيش المصري في عام 1881م قائلاً: «... أن الضباط المصريين جهلاء تماماً وغير قادرين على فهم معنى أبسط التحركات العسكرية والأعمال الميدانية... بالإضافة إلى أنهم يحملون أفكاراً خرافية بخصوص المهدي...»⁽²⁷⁾ فما الذي حدث للجيش المصري وللسياسة البريطانية لتتحم نفسها مرة أخرى في السودان؟ وما الذي آل إليه حال دولة المهديّة؟. كان الخليفة قد أرسل في وقت سابق حملة بقيادة عبدالرحمن النجومي ، آخر القيادات النيلية في دولته لفتح مصر ، وأبيدت الحملة بسهولة في توشكي أغسطس 1881م وكان الانتصار مفخرة للسلطات الحربية البريطانية.⁽²⁷⁾

عمل البريطانيون منذ هزائمهم المتلاحقة على يد الثورة المهديّة على بناء مصر وتأهيل جيشها وتحديثه،⁽²⁸⁾ بينما قبعّت دولة المهديّة في بدائيتها وبقايا ما غنمته من أسلحة في معاركها (1881-1881م)، وأنهكت الجيش الصراعات الداخلية، لتوطيد حكم الخليفة الأتوقراطي، إلى جانب حروبه الخارجية الفاشلة مع الإمبراطورية الإثيوبية وأخيراً مصر، كما تردّت إقتصاديات الدولة

بحكم عزلتها جرّاء هذه السياسات . بدأ انهيارها تدريجياً مع اشتداد معارضه الغالب الأعم من القبائل السودانية، وأضيف لمصاعبها هروب ثلاثة من سجناء الخليفة إلى مصر وهم (الأب أوفهولدر، الأب روزليني، سلاطين) بمساعدة من المجموعات التي تم تهيمشها من مركز السلطة، فتم الترتيب مع ريجنالد ونجت مدير الاستخبارات العسكرية في مصر، الذي استفاد من المعلومات الذي زودها به نجاة من أسر المهديّة، مما أكد له ضعف الدولة.⁽²⁹⁾

احتل غردون موقعاً في ذاكرة الاستعمار ذات المسوح التبشيرية ، فرغم أن إعادة فتح السودان بقوات بريطانية استدعته مقتضيات السياسة الأوروبية في تلك الفترة، وعبر عنه سالزبوري رئيس الوزراء البريطاني براءة دبلوماسية بأنه من أجل مساعدة الإيطاليين في كسلا، إلا أن ذكرى مقتل غوردون ما فتئت مخيمة على أفئدة قادة الجيش البريطاني الذين عملوا في حملة استعادة السودان، وكان أغلبهم من سلاح المهندسين الملكيين، وقدموا في وقت سابق إلى السودان في حملة الإنقاذ بما فيهم كتنشر قائد الحملة و سردار الجيش المصري الجديد، والفيلد مارشال وليزلي الذي أصبح القائد الأعلى للجيش البريطاني.⁽³⁰⁾

عاد الجيش هذه المرة وهو مدجج بأسلحة حديثة منها مدافع المكسيم الأمريكية التي استمرت في الخدمة مع الجيش البريطاني إلى ما بعد الحرب الكورية (1951-1959م) وبندقية لي متفورد ذات الخمسة طلقات والتي أُستعملت في حرب البوير حتى الشهور الأولى من الحرب العالمية الأولى (1914-1918م)، وكان عيبها الوحيد أن طلقها ضعيف الأثر في إيقاف اندفاع المقاتلين الأنصار وهم يهجمون على طوابير الجنود البريطانيين بالآلاف، تلك الصورة التي لم تنسها الكتائب البريطانية التي دخلت السودان، لذا تم تغيير ذخيرتها بطلقات مستديرة الرأس مجوفة وهي الجيل الأول من طلقات الدمدم سيئة السمعة التي تنفجر إلى شظايا داخل الجسم وتحدث جروحاً مرعبة، هذه الطلقات سرعان ما سحبت وحرمت لاحقاً، ولكن بعد أن أحدثت إبادة رهيبة وسط الأنصار في معركتي عطبرة وأم درمان.⁽³¹⁾ وقد لخص وينستون تشرشل نصر معركة أم درمان بأنه «نصر مكلل بالعار» في إشارة لعدم تلقي الجرحى من الأنصار عقب المعارك لأية عناية طبية، ولم يعرض هذا التقصير قائد الجيش الإنجليزي المصري لأي نوع من المساءلة، ولم يحدد عدد الجرحى أو القتلى في معارك (استعادة السودان) كما وردت في مكاتبات الإداريين البريطانيين ، ومع أن التقارير الرسمية تشير إلى أن قتلى معركة كرري حوالي (008.01) إلا أن الأرقام المصرح بها متضاربة، ويبدو أنه أعلى بكثير مما رصدته التقارير الرسمية التي لم تتضمن أعداداً للجرحى، وأشار الشيخ بابكر بدري في مذكراته «...أنه في كل منزل من منازل أم درمان هناك مصاب على الأقل..» ومات الكثير من المدنيين في شوارع أم درمان كان أغلبهم من الجرحى الزاحفين من أرض معركة كرري في 2 سبتمبر 1898م.⁽³²⁾

بعد يومين من المعركة أخذ كتنشر فرقة موسيقية وحرس شرف وعبر بهم النيل إلى الخرطوم حيث أقام في ساحة قصر الحاكم العام المهجورة والمغطاة بالأعشاب البرية نصباً تذكاريّاً لأعز زملائه المهندسين العسكريين. الجنرال شارلز غردون. وكان ممتلئاً بالعواطف الجياشة لدرجة أنه لم

يستطع إنهاء الحفل من شدة التأثر، وكتب خطاباً مطولاً للملكة التي انفلتت أيضاً لدرجة البكاء بوصف كتشنر للحفل التذكاري الذي أقامه لغوردون في الخرطوم في قصر الحاكم العام، فكتبت الملكة في مفكرتها (لقد تم الانتقام له الآن بالتأكيد).⁽³³⁾

مع إنهيار الدولة المهديّة وقبيل معركة كرري، خرج علي دينار من أم درمان خلسةً في ثلاثمائة من الإتياع قاصداً دارفور لاسترداد عرش آبائه، في وقت ظهر فيه مطالبون آخرون بسلطنة دارفور، وكان أهمهم إبراهيم علي، المرافق للقوات الإنجليزيّة المصريّة، الذي سمح له قائد الحملة الجنرال كتشنر بالذهاب لتعزيز دارفور، التي نجح دينار أن يعلن نفسه سلطاناً عليها في أكتوبر 8981م.⁽³⁴⁾

لم تحفل إدارة الحكم الثنائي الجديدة بمد نفوذها في دارفور دون تأمين استقرارها الإداري في شمال وشرق السودان وذلك، لاتساع، وبعد الإقليم، فبارك كتشنر عند اعتلاء علي دينار ذلك، وأقام معه تحالفاً سياسياً أصبح بموجبه يدفع دينار جزية سنوية تعبيراً عن ولاءه لحكومة السودان إلا أنه كان متشككاً وغير واثق من هذه العلاقة، وظهر ارتيابه في خطاباته للحاكم العام الجديد الجنرال ريجنالد ونجت ومفتش عام السودان رودلف فون سلاطين. كما كانت مشكلة الحدود الغربية، والجنوبية لدارفور إحدى مصادر اهتزازات الثقة، إلى جانب سياسات السلطان الباطشة تجاه قبائل البقارة وبالأخص الرزيقات، وسرعان ما امتدت لا حروباً إلى قبائل كردفان «الكبابيش المواليين للحكومة» وكانت مشكلة الحدود الغربية معضلة رئيسية ليس لعل دينار وحده بل للحكومة الاستعمارية التي كان جزءاً من أسباب تدخلها في السودان في وقت سابق، إيقاف الزحف الفرنسي إلى أعالي النيل.⁽³⁵⁾

طلب دينار من الحكومة في يأس أن تسمح له بمعالجة مشكلة الحدود على أن تمده بالسلاح، فرفضت ذلك، كما فهمت أن تحديد السلطان دينار للحدود يوضح سياساته الطموحة ليس بالاتجاه غرباً فقط بل وإلى الشرق «مديرية كردفان» مما يمثل تهديداً واضحاً لاستقرار إدارتها واحتمال إقحامها في مواجهة عسكرية غير مرغوبة مع فرنسا. فعالجت المسألة بمزيد من المماطلة.⁽³⁶⁾

دارفور والسلطان سرديّة مضطربة في سجل التاريخ:

عند استعادة دينار للسلطة كانت دارفور تموج بالاضطرابات القبلية، كما ضربت الدولة المهديّة على ما تبقى من القوى التقليدية خاصة من الفور، وكان هذا التاريخ قريباً وحيّاً في ذهن السلطان الذي أراد إخضاع قبائله من البقارة بالأخص لسلطته، بالمقابل فقد كانت قبيلة الرزيقات تهرب من بطش السلطان إلى كردفان، وبرر دينار في خطاباته للحاكم العام ومفتش عموم السودان بأن هذه القبائل مازالت موالية للدولة المهديّة. وكان مدرك أن إلصاق موالاه المهديّة إليها سيبعد إهتمام الحكومة التي كانت تقمع أي مظهر للمقاومة يلامس رؤى المهديّة⁽³⁷⁾ وإمعاناً في تضليل الحكومة ومعرفة نواياها فقد أرسل وفداً بقيادة محمد فضل طالباً من الحاكم العام ريجنالد ونجت تزويده بستة أعلام ثلاثة مصرية وثلاثة بريطانية لرفعها في

الفاشر «عاصمته» والكلاكلة، وحفرة النحاس، وتجنب ونجت الطلب لاحتياج الأعلام لحماية حرس منتقون بعناية ومسلحون، وفسر دينار ذلك باعتباره ضعفاً من جانبها، وفعلاً فقد أدى عدم إستقرار الحدود والقوة المتزايدة للفرنسيين باحتلالهم لسلطنة ودّاي في يونيو 8091م، التي كان سقوطها حدثاً مروعاً لعلّ دينار فاعتبر نفسه مهدداً بالسقوط مع إحاطة حدود مملكته بقوتين استعماريّتين.⁽³⁸⁾

رغم أن علي دينار أظهر نوع من الحنكة والذكاء في مواجهة حكومة السودان، بصياغة خطاباته معبر التفاهم الرئيسي له مع الحكومة بلغة حذرة، إلا أن هذا النهج الهادئ أخذ في التغيّر، عندما اتخذت الحكومة أسلوب النصح للسلطان بواسطة أحد أعوانها السودانيين، والذي كان سابقاً من العناصر البارزة في فترة حكم المهديّة، مما فجر غضب السلطان، ورسمت هذه الحادثة بداية التغيّر لسياسة التهذئة. ومن جانب آخر فقد اعتمدت هذه السياسة على آراء مفتش عموم السودان رودلف فون سلاطين حاكم دارفور السابق في عهد مصر العثمانية، وكان سلاطين يرى ضرورة الاستعانة بالزعامات المحلية لإدارة الدولة الاستعمارية وفق ما تتطلبه الأوضاع، فكان من المؤيدين ترك السلطان علي دينار ليدبر سلطنته بروح من الاستقلال، وحرص من حين لآخر بتوجيه أوامر له في شكل إرشادات عبر خطاباته الراجعة له، وحرص في تهذئة السلطان كلما شعر برفضه تنفيذ هذه الإرشادات، بتذكيره أيام أسرهما لدى الخليفة، ونقتبس من بينها قوله: «... أن صداقتي إليك هي صداقة شخصية تمكنت بيننا أيام الشر في قبضة أعدائنا الدراويش ناهيك عن كوني صديق مخلص لأهالي دارفور الذين كنت معهم وحكمتهم مدة طويلة ... ويجب أن يكون معلوماً لديك أن الحكومة لا تعير أذنها وشايات المفسدين ولا تعير أدنى التفات لأنها تحسبك صديقاً أميناً لها واطال الله بقاءك».⁽³⁹⁾

تغيّرت هذه الأوضاع مع انفجار الحرب العالمية الأولى، وبعد تقديم سلاطين استقالته لحكومة السودان، لانضمام دولته النمسا الحرب ضد المعسكر البريطاني، فقد أدرك الحاكم العام «ونجت» أن الخطر من دارفور لا يمكن تفاديه إلا بالمبادأة بغزوها والصدام مع سلطانها.

الحرب استعداد سياسات الولاء:

عند قيام الحرب العالمية الأولى في أوروبا، لم يعرها السودانيون أي اهتمام كبير حتى في مناطق الوعي، وذلك لعدم تأثرهم بالقضايا المتنازع عليها ودوافع الصراع بين القوى الأوروبية، إلى جانب ضعف إنتاج المحاصيل الزراعية نتيجة شح أمطار عام 3191م، كما انخفض منسوب النيل وتأثرت المديرية النيلية في الشمال كثيراً، وأنقذ السودان من مجاعة عامة استيراد الحكومة الذرة من الهند، بدأ شعور الرضا والارتياح يسود في عام الحرب 4191م، وذلك لوفرة المحصول الزراعي في ذلك العام.⁽⁴⁰⁾ ومن الطبيعي أن تكون هناك بعض التساؤلات المحيرة فقد كانت بريطانيا تسيطر على مصر وفي حرب ضد الإمبراطورية العثمانية التي كان سلطانها خليفة للمسلمين وصاحب السيادة على مصر، وزاد من تعقيد الوضع السياسي إعلان الخديوي عباس حلمي في عام 4191م انحيازه للسلطان العثماني، فغضبت بريطانيا ونصبت السلطان حسين كامل خلفاً له.⁽⁴¹⁾

يعتمد السرد السابق على السجل الرسمي من قلم المخابرات، وما خطه ماكمايكل في كتابه (السودان). لقد تخوفت حكومة السودان من تأثير الحرب على المقاومة الدينية المهدية، خاصة وأن العديد من أشكالها كانت قد اندلعت في فترات سابقة، وواجهتها الحكومة بقوة وعنف مفرط. وبدا واضحاً أن زعماء هذه المقاومات كانوا منفصلين عن القاعدة الشعبية، إلا أن اضطراب الحرب الأوروبية، إلى جانب فوبيا المهدية المتأصلة في ذهن الحاكم العام دفعته إلى إغراق حكومته في حرب دعائية مضادة مستحكمة ليحول دون قيام المقاومة الدينية.⁽⁴²⁾

فقد تواجد الحاكم العام لأول مرة منذ تولية منصبه في نهاية 9981م — في الخرطوم في شهر سبتمبر 1914 وشرع في إجتماعات قبل أن تعلن الإمبراطورية العثمانية دخولها الحرب إلى جانب المعسكر المعادي لبريطانيا. واستدعى الضباط والموظفين من المصريين لتجديد تلاوة قسم ولاء الواجب شارحاً لهم أوضاع الحرب، ثم دعا العلماء والزعماء الدينيين في البلاد الذين تجاوبوا بإعلان ولائهم.⁽⁴³⁾ وأمطرت برقيات الولاء الحاكم العام وصحيفة (حضارة السودان) ونشرت هذه البرقيات في كتاب بعنوان (سفر الولاء) الذي عبر عن تحالفات الزعامات المحلية مع الحكومة الاستعمارية، أما بالنسبة لعامة السودانيين، فعند إعلان السلطان العثماني الحرب ضد بريطانيا، أزيلت غشاوة من أعينهم في نظرتهم للإنجليز باعتبارهم أتراك ويمثلون سيادة السلطان العثماني. ولذلك فحرب إنجلترا التي أعلنت ضد السلطان العثماني مثلت لهم فرصة لبناء تحالف مع حكومة السودان مستغلين التحولات التي أحدثتها الحرب.⁽⁴⁴⁾ من الواضح أن حدث الحرب غير لحد كبير سياسات الحكومة الاستعمارية تجاه عناصر المهدية السابقة، فتغيرت من بعد المواجهة الدموية التي قامت بها الحكومة في حادثة الشكابة عام 0091م إلى بناء ولاء جديد مع عناصر المهدية.⁽⁴⁴⁾

دارفور أبان الحرب:

ألقت استقالة سلاطين أثناء الحرب الحاكم العام في مأزق لا فكاك منه، فقد اعتمد الحاكم العام في عملة الإداري والتنظيمي على سلاطين، لأن لديه صلات ومعرفة لصيقة بعناصر مؤثره من السودانيين إلى جانب معرفته بدارفور. فقد كان سلاطين الموثوق الأول لدى ونجت في كل ما يشير إليه، وكانت وظيفته كمفتش لعموم السودان تضعه في الموقع الثاني من بعده.⁽⁴⁵⁾

بعد غياب سلاطين ألغى ونجت منصب (مفتش عموم السودان) ووزع مسئولياته على عدد من الإدارات وذلك لقناعته بعدم وجود من يمكن أن يشغل هذا المنصب بنفس كفاءته. «لا يوجد رجل يعرف السودانيون كما يعرفهم سلاطين». على حد قول ونجت نفسه.⁽⁴⁶⁾ وكان حدث الحرب في دارفور مغايراً لما ساد في بقية أنحاء السودان فمن جانب أثر غياب سلاطين في سياسة حكومة السودان، وخاصة تجاه سلطنة دارفور فقد استرشد الحاكم العام بآراء سلاطين بمنح الزعامات المحلية دوراً مع بعض الرقابة في إدارة أقاليمها، لمعرفته بالهزات العنيفة التي تعرضت لها هذه الزعامات في عهد المهدية بالخصوص في فترة الرقابة المستحكمة التي اتبعها الخليفة عبد الله التعايشي، إلا أنه لم يتبع نهج التهدة تجاه تحركات السلطان عل دينار إلى الغرب من حدوده.

فتوصل إلى تفاهم مع الفرنسيين حول الحدود، وبالتالي يمكن استنتاج أن التوسع الفرنسي في وادي قد يكون نتيجة لتفاهمات بين القوتين الاستعماريتين للتضييق على سلطان دارفور.⁽⁴⁷⁾

مع ذلك أصبح إقليم دارفور على اتساعه يضيق على قبائل الرزيقات من البقارة؛ فمنذ العقد الأول لاعتلاء علي دينار سلطنة دارفور قام بحروب داخلية متواصلة ضد البقارة، استهلها ضد الرزيقات، وتدرجت لتشمل جميع ما أسماهم السلطان (عربان دارفور) والذين لم يكن أمامهم سوى اللجوء لحكومة السودان في الإقليم الأقرب (مديرية كردفان).⁽⁴⁸⁾ لم يوقف اندلاع الحرب الأولى السلطان علي دينار في إتخاذ سياسة تهدئة تجاه قبائل البقارة، على العكس فقد صعداها ووصلت قواته في تحد سافر للحكومة الاستعمارية إلى حدود كردفان متتبعه قبيلة الزيدانية، ففي 32 مايو كتب علي دينار أربع رسائل إلى علي التوم رئيس شيوخ الكبابيش، بأنهم يأسرون المسلمين الأحرار الذين هربوا من الفرنسيين في وادي ويبيعونهم كعبيد. وتوعد إن لم يتوقفوا عن أعمالهم بأنه: «...إنني بإسم الله سوف أريكم نوع العقاب الذي ستقاسونه من الله، سواء الآن أو فيما بعد». أما في الرسالة الرابعة فقد أعلن أن الكبابيش يتبعون أفعال المسيحيين وقد هجروا دين الله. وانتهت الرسالة بدعوة للجهاد والتهديد. إستخدم الشيخ علي التوم محتوى الرسالة المزعجة، بإرساله لرسائل دينار إلى مفتش بارا بمديرية كردفان، مع تحذير له، بأن علي دينار سيقوم بثورة تشبه ثورة المهدي والخليفة.⁽⁴⁹⁾

عانى قبيلة الكبابيش في عهد المهدي من مذابح متواصلة كادت أن تؤدي بها، وقد تحالفت القبيلة مع القوات الغازية للسودان بمدد بالجمال فهي من أكبر القبائل الأباله في السودان، مع ذلك لم يعر الحاكم العام كبير اهتمام دعاوي الجهاد التي هدد بها دينار شيخ الكبابيش في ردة علي مدير كردفان: «... على ضوء طموحات السلطان التوسعية في حدوده الشرقية المتاخمة كردفان، فإن دعوته الظاهرية للجهاد لم توليها الإدارة الاستعمارية اهتماما، وفست دوافع كتابة خطابه بتلك اللغة بأنها قد تكون كتبت لتخويف الكبابش وليكتشف في الوقت نفسه موقفهم تجاه الحكومة وتجاه الحرب الدينية.⁽⁵⁰⁾ ومع ذلك فقد أربع موقف علي دينار التهديدي ضد الكبابيش حكومة السودان، وكان هناك استحسان إرسال سرية من الهجانة شمالاً من بارا وسرية أخرى إلى النهود، الأولى لحماية الكبابيش والأخرى إلى الحمر والحمر ضد أي هجوم محتمل من قوات علي دينار، وتقرر إرسال كل شرطة الهجانة التابعة لشعبة سافيل حرساً للمفتش البريطاني الموجود في مركز الكبابش.⁽⁵¹⁾

ترسيم الحدود:

ارتبط ترسيم الحدود السياسية للسودان بمجيئ الإدارة الاستعمارية في السودان وابتدأ مع وجودها صراع استعماري في حدود السودان الغربية، فمنذ العام 1981م كان الفرنسيون يفكرون في وسيلة تمكنهم من إضعاف موقف بريطانيا في مصر. ولذلك سارعوا أثناء حملة استعادة السودان إلى احتلال أعالي النيل الأبيض، حيث وضع العلم الفرنسي بقيادة مارشان في فشودة. التي وصلها كتشنر بعده بأسبوعين في خمس بوارج نيلية وكتيبة من الكامرين. ليضع العلم البريطاني مع ذلك

لم تندلع الحرب، فقد حلت أزمة فشودة الدبلوماسية الأوربية بانسحاب مارشان.⁽⁵²⁾ حسم التنافس على الحدود في غرب السودان وفي الواقع فإن مفهوم الحدود برز بالارتباط مع ظهور الاستعمار والتكالب على اقتسام أفريقيا منذ مؤتمر برلين 1884م، مما ولد تنافساً شرساً في نهايات القرن التاسع عشر. أما بالنسبة للسودان فقد أُعتبر أراضي عثمانية ومملوكة للخديوية المصرية فلا يحق استلابها، واعتبرت إنجلترا نفسها بعد إعلانها الحماية على مصر حارسة لحدودها التي شملت السودان. ومع تداعيات الحرب فقد إنتقل الموقف التنافسي، خاصة بعد انضمام فرنسا لمعسكر «الحلف الثلاثي»، إلى التنافس على الحدود الغربية بعد ضمها لسلطنة ودّاي المجاورة لسلطنة دارفور. مما سرع في ترتيب تسوية سياسية. وعودة مرة أخرى إلى سلاطين مدير دارفور في عهد الاستعمار العثماني المصري. فقد أجرى سلاطين «ذكر سابق» اتفاقاً مع فرنسا، تراجعت عنه بعد تنحيه من منصبه.⁽⁵³⁾

انقطع التفاوض عند اندلاع الحرب العالمية الأولى بشأن إجتماع محكمة التحكيم لحل النزاع الحدودي بين دارفور ووداي. وتم الاتفاق على أن يؤجل كل الموضوع إلى ما بعد ستة أشهر من معاهدة السلام الخاصة بانتهاء الحرب. ومع رحيل سلاطين الذي نظر إليه الفرنسيون كمتشدد. فقد حل محله ماكمايكل (Macmichael) فوقع على معاهد تكميلية في 9 سبتمبر 1919م. وسعت وفق التفسير الفرنسي مطالب اتفاقيتهم السابقة بعد أزمة فشودة فقد تم بموجب الاتفاقية الجديدة احتفاظ فرنسا بتماما، وإحتفظ الجانب البريطاني بمساليق وقمر، وفي شمال الحدود الغربية منح الفرنسيون مجار توك وهي تابعة للزغاوة في دارفور وتقع شمال تاما. فأصبح خط وادي هور حد شمالي لدارفور، بينما احتفظ الإنجليز بواحة النطرون، بالإضافة إلى واحتين إلى الشمال.⁽⁵⁴⁾ أقر البرلمانيين البريطاني والفرنسي هذه المعاهدة في مارس 1291م، وقسمت الحدود لجنة مشتركة، وأظهر هذا التقسيم مشكلة رئيسية وهي عدم اهتمام الدولتين بالتوزيعات القبلية، فقد بدأ خط الحدود من النقطة التي تلتقي عندها الحدود بين الكنگو البلجيكي وأفريقيا الاستوائية الفرنسية عند الحاجز المائي الفاصل بين حوض النيل وحوض الكنگو. وتتبع في الأساس الحاجز المائي عند نقطة تقاطع مع خط عرض 11 شمالاً. ويفصل بذلك قبيلة التعايشة عن القبائل الأخرى الخاضعة لدارفور. والمختلفة عن القبائل الموجودة في دار مساليق ودار قمر. وبحلول شهر يوليو 1291م تم مسح غالبية الحدود، وزار مندوبين للحكومتين الأجزاء التي يحتمل أن تكون محل نزاع، مع ذلك لم يطرأ تعديل على الاتفاقية وإقليم التعايشة الذي حاول المندوب البريطاني «بيرسون» ضمه إلى السودان مقابل منح فرنسا قرى الداجو، والقرى التي تليها، وشمال جبل كودي، وتركت منطقة آبار تني بدون إتفاق على تبعيةها. لتمثل ثغرة خلافية أخرى.⁽⁵⁵⁾ وانعقدت مفاوضات أخرى شاقة، حاول ماكمايكل اقتلاع دار التعايشة مقابل التنازلات السابقة، إلا أن الجانب الفرنسي رفض الموافقة على أي شروط جديدة للتنازل عن «نتوء كلبس»، بل استطاعوا إضافة قرى الداجو إلى الحدود الجديدة وفي 01 يناير 1291م وقع جروسار عن الجانب الفرنسي وبوليس عن الجانب الإنجليزي على البروتوكول. وتم بموجبه تعيين الحدود بين أفريقيا الاستوائية الفرنسية والسودان الإنجليزي المصري⁽⁵⁶⁾

المقاومة: امتدادات أخرى للحرب:

تشير غالبية الكتابات السودانية إلى مقاومة السلطان علي دينار باعتبارها مقاومة إقليمية، ونظرت إلى فترة حكمه لسلطنة دارفور أثناء قيام الاستعمار الثنائي بأنه شكل من أشكال الاستقلال الذاتي. واعتبرت بذلك سلطانها نموذجاً بطولياً لاستمراره حاكماً لدارفور طوال سبعة عشرة عاماً في ظل الاستعمار.⁽⁵⁷⁾

لكن الملاحظ من خلال الخطابات المتبادلة بين علي دينار والحكومة الاستعمارية، فإن بعض مما صيغ عن تعريف مقاومته للحكومة بأنها مقاومة إقليمية يحتاج إعادة نظر. فقد عمل السلطان علي دينار على إرساء قواعد حكمه وفق منهج أوتوقراطي، وقد أجبرته المتغيرات السياسية التي أثرت على بنية العلاقات بين السلطنة إلى اعتماد صيغة مختلفة عن قواعد إدارة سلطنة دارفور التي كانت متبعة منذ القرن السابع عشر. فأنقلب على الزعامات المحلية المنحدرة من الفور، بإلغائه التنظيمات التقليدية التي سادت في سلطنة دارفور. ندين بالفضل للرحالة العربي محمد بن عمر التونسي للمعلومات الخاصة بالتاريخ المبكر لدارفور في أوائل القرن التاسع عشر لعقد هذه المقارنة مع إشارات آلن ثيوبولد. يقول التونسي: «... إن السلطان إذا سقط من حصانه فإن كل الذين معه يلقون بأنفسهم من على خيولهم، وأي شخص لا يفعل ذلك أياً كان مرتبته ودرجته فإنه يطرح أرضاً ويضرب...» ويمكن أخذ رواية التونسي في جزئيتها هذه وإسقاطها على تساؤل رئيسي عن الفئات المكونة للمقاومة في فترة الحرب، وهل صمد الجميع مع السلطان أم تراجعوا عنه. سادت بعض آثار النظم الإدارية التقليدية تحت حكم علي دينار، فاحتفظ (الدينجاوي) و (الامتقاوي) وهما منصبان عسكريان بقيادتهما في جبل مرة، وألغى مقاديم الجنوب، وعطل مؤقتاً مقاديم الغرب بسبب الحروب مع المساليت ومع الفكي سنين. وأخيراً بسبب التقدم الفرنسي.⁽⁵⁸⁾

كان أساس سلطة علي دينار هو الجيش إذ ارتكزت قدرته على قواته وولائه لتأديب المتمردين ولفرض إرادته على القبائل الكبرى في كل الأقاليم الواسعة لدارفور ولصد الغزاة. وقام المسؤولون في حكومة السودان بإجراء عدد من التقديرات لقوة جيشه وتوصيف بنيته في فترات مختلفة خلال عهده، ويمكن أن نخلص إلى أن الجيش كان مقسماً لفرق عسكرية، وجود نظاميين مرتكزين في الفاشر، أما غير النظاميين فيعيشون في مناطقهم ويستدعون في حالة الطوارئ، ولم يكن للجيش زياً موحداً، وأسلحتهم النارية البسيطة تقليدية، وتتفق في ذلك تقارير ماكمايكل التي كتبها من كردفان قبل أشهر قليلة من غزو دارفور.⁽⁵⁹⁾

لماذا اندفع السلطان علي دينار في حرب مباشرة مع الحكم الاستعماري؟ هي إجابة لا تتعلق بدوافع السلطان الذاتية فقط في تحقيق حكم مستقل عن الإدارة الاستعمارية، بقدر ما لها من دوافع خارجية عن إطارها الإقليمي والذاتي، ولذلك لا يمكن تقييم المقاومة بمعزل عن قيام الحرب العالمية الأولى، فتمثل المقاومة الإقليمية اندماج في حدث الحرب خارج إطاره الجغرافي لتأثر المقاومة بالسياسات الاستعمارية، الشيء الذي أدى لتغيير أساسي في تاريخ دارفور ككيان سياسي كان مستقلاً إلى حد ما، ولكنه متأثر بمجريات الحدث، وكنتيجة لانفجار المقاومة داخل دائرة الحرب.

ارتداد تاريخ مقاومة الاستعمار في سياقات الراهن :

لم يُثر اندلاع الحرب العالمية الأولى عند العام 1914 حقل الكتابة عن تاريخ السودان، عدا الإشارات المتناثرة التي تتناول حدث الحرب كخلفية للأحداث الجارية، عازلة تأثيره على مجريات الأحداث السياسية وتحولات حركات مقاومة الاستعمار، وبالتالي لم ينظر للحرب باعتبارها حدثاً مفصلياً في مآلات الحركة الوطنية، وتغيير السياسات الاستعمارية بصفة عامة، إلى جانب التحول الملحوظ في تشكل حركات مقاومة الاستعمار بدءاً بدارفور وليس انتهاء بثورة 1924 التي تلتها بأعوامٍ قليلة . بل أن حدث الحرب وصف بمعزل عن صعود المقاومة، وهمش إثره في رسم سياسات الاستعمار التي اتجهت للتحالف مع القيادات الطائفية وتأسست علاقات التبعية من خلال تطبيق سياسة غير المباشر فمنحت سلطات لرجال الإدارة الأهلية⁽⁶⁰⁾.

اختلفت آثار حدث الحرب على السودانيين والبريطانيين العاملين في إدارته، لاختلاف أدوارهم في مجراها، إلا أن الدعوة إلى الجهاد التي تبنتها الإمبراطورية العثمانية لقيت قبولاً عند السلطان علي دينار، وبدأ أسلوب خطابه للحكومة الاستعمارية يتخذ منهجاً مختلفاً تجاهه، ومثل له بالنموذج التالي:

بعث علي دينار في 02 مارس 1915 خطاباً طويلاً إلى السيد علي الميرغني كشف بالكامل ولأول مرة استيائه وتذمره من حكومة السودان بادئاً رسالته بمقدمة تاريخية طويلة وصف فيها غزو الزبير لدارفور ومجيء المهديّة، وعودته من معركة كرري لاستعادة ملك آبائه وأجداده، ونجاحه في استعادة ازدهاره السلطنة وتأسيس حكومة صالحة، وانتهى بشكاوى مفصلة عن عدم تعاون حكومة السودان معه في إجابته لمطالبه، ورؤيته في إدارة السلطنة بدون تدخل في أحوالها.⁽⁶¹⁾

دفع السلطان علي دينار متهمًا حكومة السودان (اسم الادارة الاستعمارية الرسمي وفق السجلات) بمديونية مالية تماطل في تسديدها ، تبلغ 2,008 جنيهه وفجر غضبه كرة أخرى في 22 أبريل 1915م في رسالة تحدى، أعلن فيها تخليه عن التزاماته بدفع الجزية، ووجه الرسالة إلى: (السردار الذي يفترض أنه ملك السودان) وكانت الرسالة حول خلع الخديوي عباس بعد إعلان تأييده للسلطان العثماني في الحرب وانضمام مصر للمعسكر المعادي لبريطانيا، فكتب السلطان : «هل خطر ببالك أن الملك لله الواحد القهار؟ أن عباساً ما زال حياً وليس لديك السلطة لخلعه... أني مندهش من صلفك واعجابك بعنادك وقوتك واسلحتك وجيوشك... أن خلع عباس لا يتفق مع الكتاب ولا مع التقاليد وسيعود بإذن الله ليحكم مصر...»⁽⁶²⁾.

ثم يتباهي علي دينار بنسبة السلطان بن السلطان الذي ورثت الملك عن أسلافي بتسلسل صحيح. ثم أوضح أن دفعه للجزية كان الغرض منه إيقاف العدواة بينه وبين حكومة السودان ، وأضاف أنه قام بذلك إشفافاً على أهل دارفور الفقراء. ويقول: «... وقمت بإرسال الجزية لك سنوياً، والآن بعد أن بدأت في تهديدي والله وباسم الله سأقاتلك حتى ولو بقيت وحيداً بسيفي وحصاني، وسأقاتل لاسترداد دين الله إن هدي في أولاً وأخيراً سيكون الجهاد...»⁽⁶³⁾.

حاول الحاكم العام استمالة علي دينار للهدوء، فخطبه بوصاية أبوية ، واستنكر ما أبداه من غضب وذهب في نصحه بعيداً، فوضح له التشابه بين الإسلام والمسيحية، وأنه يكن له احتراماً خاصاً كمسلم تقي، وأن هناك أكثر من 001 مليون مسلم في الإمبراطورية البريطانية أكثر ولاءً وإخلاصاً ويعاملهم الإنجليز كأخوة⁽⁶⁴⁾

تعكس خطابات علي دينار والحاكم العام الحرب الكلامية، والجدل القائم على رفض السلطان مبدأ حكم الاستعمار من حيث أنه يتناقض وتعاليم الدين الإسلامي وتبعيته لسلطان المسلمين ، السلطان العثماني، وبينما عمد الحاكم العام إلى الحذر في اختيار مفردات اللغة التي يخاطب بها السلطان، إلا أن الأخير احتشدت لغة خطابه بمفردات وصور التهديد المباشر بحرب جهادية في خطوة اتسمت بالتهور من قبل السلطان الذي لم يكن يدرك ما تخبئه له جعبة ونجت الذي أنهى عهده بالتخلص من حكم علي دينار، فوظف دعاوي الجهاد التي توعد بها السلطان إدارته للتجهيز لحملة عسكرية كانت باهظة التكاليف لطول الطريق الذي كان عليها أن تسلكه لغزو دارفور وإسقاط السلطان.⁽⁶⁵⁾

ارتداد تاريخ المقاومة في راهن الدولة الوطنية :

بدأ كل من علي دينار وحكومة السودان في التجهيز للحرب المرتقبة، ومارست حكومة السودان سياسة والحرب الدعائية في أعلى حالاتها، إلى أن ضيقت الخناق عليه، فمن جانب استخدمت العبيد من المساعدين، والمخبرين لإبلاغ علي دينار بمدى قوة جيش الحكومة واستعداداته، ومن جانب آخر عملت على استفزازه لتثير عليها.

كلفحت الحكومة السيد علي الميرغني بكتابة خطاب لعلي دينار، في الواقع لم يشارك السيد علي في صياغة أي كلمة منه، بل مهر اسمه وختمه فيه، وأوضح في هذا الخطاب لعلي دينار أن كل ما يتعلق بالجزية، يجب أن يناقش مع سلاطين. فكيف للحكومة أن تغفل ذلك. كما أبلغه أن تحركات الحكومة في كردفان المقصود منه حماية الحدود تبين النسخة الأولى غير المصاغة لهذا الخطاب مدى حرص ودقة محرر الخطاب في مفرداته، ولذلك لا يمكن أن يكون ذكر اسم سلاطين في ذلك الوقت خطأ غير متعمد. كما يشتم من الخطاب رائحة الإنذار باندلاع الحرب بين حكومة السودان وعلي دينار، من خلال تبريرات الحكومة لكثافة وجودها الغير معتاد على حدود كردفان، وتطرق للأسلحة الحديثة التي يمتلكها البريطانيون والتي جعلت موقفهم متقدماً خلال الحرب القائمة بينهم وبين إمبراطور بروسيا، وأن الأسلحة التي يملكونها تختلف عن الأسلحة التي استخدموها ضد المهديّة.⁽⁶⁶⁾

بدأت الحكومة استعداداتها العسكرية في نوفمبر 1911م لتسيير حملتها ودفعت الأحداث الخارجية المتعلقة بوضع الحرب بعد ضرب ألمانيا لشواطئ برقة. وتسليمهم للأسرى من البريطانيين إلى السنوسي، فتزامن تحرك الحملة مع المشهد الخارجي عند إنسحاب الجيش البريطاني أمام خطر رجال القبائل الصحراوية في برقة، مما يمكن أن يصعد النشاط الدعائي، الذي ألقى بأثره على السلطان علي دينار.⁽⁶⁷⁾

مهدت الخطابات المرسلة للسلطان علي دينار في تأجيج الحرب، لتناقضها مع واقع الأحداث، إلا أن شكوك الحكومة بتعاون السلطان مع السنوسي، والسلطان العثماني، تأكدت بعد أن وصلت مدير كردفان معلومات تفيد بوجود إتصالات بين نوري السعيد وعلي دينار، ورسالة من سلطان تركيا تحثه على الثورة ضد حكومة السودان والاشتراك في الجهاد ضد إنجلترا، إلى جانب وصول أسلحة ميل شهرين إلى علي دينار، وتحسن علاقاته مع السنوسي.⁽⁶⁸⁾

اتبع كل من السلطان علي دينار وحاكم عام السودان ونجت أسلوب الحرب الدعائية التي خبأها من منهج المهدية وطورا أساليبها، فعندما تبين لدينار حتمية الحرب أرسل لمفتش النهود إنذارات حربه، فوصف ج. جيلان (J. A. Gillan) طبيعة رد دينار على تحركات الحكومة. لم يكن رده بدون دعاية: «إذ كنت جالساً في المكتب في صباح أحد أيام يناير عندما دخل على رسول مرعوب زاحفاً على يديه وركبته، وعندما وصل إلى الطاولة وضع عليها رمحين وعصابتين منقوشاً عليها نصوص قرآنية ذات صلة بالهلاك المحزن الذي سيلقاه الكافر».⁽⁶⁹⁾

اتخذ قرار الحرب ضد علي دينار في 11 مارس 1916م، وأرسلته حكومة السودان إلى المفوض السامي في القاهرة ومنه إلى وزير الخارجية في لندن الذي كانت تتبع له مستعمرة السودان، أرسلت تعزيزات عسكرية مكونة من كتيبتين مصريتين طلبهما ونجت أضيفتا إلى قوة دارفور الميدانية. بنفس نهج حملة غزة السودان عملت هذه الحملة، ببناء السكك الحديدية نحو الغرب، له واستخدمت الطائرات كسلاح هجومي فعال لأول مرة في مواجهة المقاومة السودانية.⁽⁷⁰⁾ أثبتت المواجهة بلا شك فارق الثورة التصنيعية بين القوتين فلم يكن إظهار أي نوع من البطولة الأسطورية كافياً لإيقاف آلة السلاح القاتل، وكررت معركة برنجية مرة أخرى المشهد الدموي لمعركة كرري في أم درمان، تم احتلال مليط في مايو 1916م، وكانت المعركة الحاسمة في برنجية في 22 مايو حيث انهزم جيش السلطان علي دينار تحت وابل السلاح الناري وقذف الطائرات للقنابل ووابل الرشاش، واحتضنت أرض الفور أبطالها، وأصبحت بذلك مديرية من مديريات السودان الإنجليزي - المصري في أول يوليو 1917م تابعة لإدارة حكومة السودان، ونستعير وصف آلن ثيوبولد: «...وأصبح عهد علي دينار المشاغب مجرد جزء من رومانسية عهد طويل وبعيد».⁽⁷¹⁾

استمرت علاقات دارفور السياسية والإدارية مع مركز السلطة السياسية مضطرباً بعد الاستقلال، وبلغ مداه عند اشتعال الحرب الداخلية في العام 2002م، واحتلت الأحداث المروعة لواقع الاقتتال الحاد الجاري في دارفور أثير الفضائيات والصحف العالمية، وأطلقت حركة إنقاذ دارفور على ما يدور مسمي (الإبادة الجماعية)، وقد نجم عن هذه التسمية ثلاثة نتائج: أولاً، تم تأجيل بحث السياق التاريخي الذي أنتج هذه الأحداث وفرضت رؤى متضادة. ثانياً، أضفي ذلك الحصانة على المحاربين أنفسهم باعتبارهم يقاومون الإبادة الجماعية. ثالثاً، أدى وصف العنف بأنه إبادة جماعية وقتل عرقي إلى إضفاء مزيد من العرقية على الصراع ومنح الشرعية للذين يسعون إلى الانتقام بدلاً من المصالحة.⁽⁷²⁾

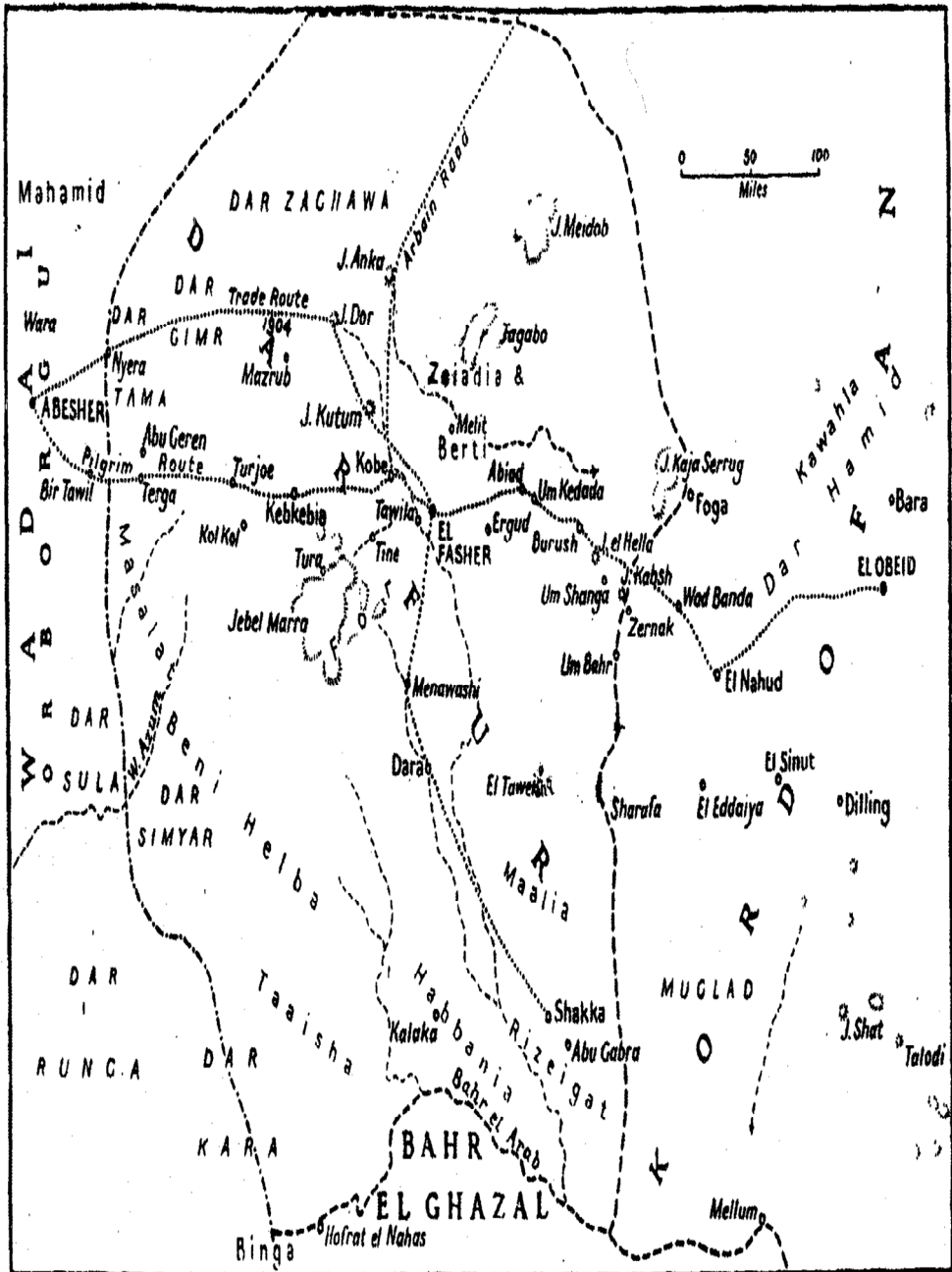
صورت دارفور صورة محزنة لعنف الوطن في زمن بدأ فيه رتق خارطة الاحتراب الداخلي في السودان. وأقحم التاريخ وفق رؤى تتماهى مع أهداف عدد من حركات المقاومة المسلحة في دارفور التي تطالب بنظام حكم فيدرالي اصطبغ بنظرة تبريرية للفترة الاستعمارية التي ساد عنها افتراض بين بعض النخب دارفور بأنها أعادت المكونات الرئيسية لتراث دارفور، بينما رأت في الحكومات الوطنية المتعاقبة نموذج لاجتثاث ذلك التراث، وذلك بتقويضها للنظام القبلي للحكم (الإدارة المحلية)، وتكمن هنا مفارقة التضليل الأيدولوجي في إقحام التراث لإنتاج استدلال مناقض للسياق التاريخي الذي انتجه⁽⁷³⁾، مع ذلك فراهن دارفور ارتدادياً، إذا تكمن في بواطنه جذوراً تاريخية ذات طبيعة تعقدت فيها علاقات السلطة السياسية والمجتمع مع شروط التحولات السريعة التي حدثت من بداية القرن التاسع عشر بمقدم الاستعمار الأول (العثماني المصري) وهزيمة السلطان علي دينار مع اندلاع الحرب العالمية الأولى علي يد الاستعمار الثاني (الاستعمار الثنائي) .

تعريفات:

* الغزو العثماني المصري : اعتمدت الدراسة هذا التعريف للإدارة الاستعمارية التي أنشأها والي مصر محمد علي باشا في السوداني العام 1821 م والتي أطلق عليها عدد من المؤرخين اسم الحكم التركي المصري، وهي تسمية لا تتوافق وتاريخ تأسيس دولة تركيا في العام 1924 م ، كما أن السودان تم استعمارها من والي مصر بعد موافقة السلطان العثماني بمرسوم .

** الجلاي: مفهوم مرتبط بالفترة السنارية، ويطلق على التاجر المتجول ذو الإمكانيات المحدودة إلا أنه حمل دلالات إضافية مع توسع التبادل التجاري تحت الحكم العثماني المصري، لها علاقة بتجارة الرقيق والمنتجات الأفريقية مثل بيض النعام وشن الفيل والتي كانت تستجلب من مناطق حول بحر الغزال في حدود دولة جنوب السودان الحالية .

*** الجهادية السود: هم الذين تم استرقاقهم في حملات صيد الرقيق التي تزايدت في فترة الاستعمار العثماني المصري (1885 _ 1885)) وقد اعتمد عليهم محمد علي والي مصر في تحديث الجيش فكون منهم جنوداً محترفين على غرار الانكشارية .



Darfur, 1904

الهوامش:

- (1) توش، جون، المنهج في دراسة التاريخ ومنهجيات وأهداف جديدة، ترجمة ميلاد مقرحي، جامعة قاريونس، بنغازي، 1994م، ص135.
- (2) دوس، فرانسوا، التاريخ المفتتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت. هذا فيما يخص سياق التاريخ الأوربي على العموم ، والفرنسي على وجه الدقة، لذلك تقوم الورقة بتطبيق هذه المنهجية على تاريخ السودان باختيار مقارنة الحوليات لتاريخ المدي الطويل بالنظر للتحولات السياسية في السودان وليس البنى الاجتماعية أو تاريخ الذهنيات كما هو متبع في مدرسة الحوليات الفرنسية المعتمدة على دراسات التحولات في مدى زمني طويل يشمل قرون متعددة، وتعد دراسة فرناند برودويل للحضارة المادية، الاقتصاد ورأس المال من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر من أهم المساهمات التي اعتمدت هذا المنهج ، بذا تطبق الورقة منهجية ومقاربة أوربية لكشف التحولات في سياق سوداني طويل المدى.
- (3) القدال محمد سعيد، تاريخ السودان الحديث 1820-1955م، مركز عبد الكريم ميرغني، أمدرمان، ط₂، 2002م، ص38.
- (4) سبولدنق، جاي، عصر البطولة في سنار، تعريب أحمد المعتصم الشيخ، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، الخرطوم، 2011م، ص218.
- (5) إبراهيم، عبد الله علي، الصراع بين المهدي والعلماء، بدون نشر، ط2 1994م، ص13.
- (6) سبلدنق، سبق ذكره، ص8.
- (7) السابق، ص 9
- (8) سكينجة، أحمد العوض، ميراث العبودية وتجارة الرق في غرب بحر الغزال (1850-1939م) // مجلة كتابات سودانية، ع5، أغسطس 1994م، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، ص57-58.
- (9) المصدر السابق، ص59.
- (10) O'fahy R. S, State and Society in Darfur, C. Hurst, London, p.11.
- (11) Ibid, p10.
- (12) Ibid, p12.
- (13) Ibid, p113.
- (14) القدال، سبق ذكره، ص54.
- (15) المصدر السابق، ص92. أورد مكمايكل في مقال له ضمن كتاب السودان الإنجليزي المصري ، أن تجارة الرقيق تصاعدت في السودان في فترة الخديوي اسماعيل ولذلك أرسل غوردون لاجتثاث هذه التجارة ونجح مسيياً في ذلك Anglo Egyptian Sudan From Within, edited by J.A.C.Hamilton, Faber&Faber, London, 1936

- (16) شببكة، مكي، مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط، المنظمة العربية، القاهرة، 1972م، ص 210-212.
- (17) القدال، سبق ذكره، 305.
- (18) سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، دار الشروق، عمان، ص 124 وما بعدها. تناول المؤرخ العراقي سيار الجميل مراحل التنظيمات العثمانية وتطرق لحركات الإصلاح الديني.
- (19) القدال، سبق ذكره، ص 124.
- (20) نيللاند، روبن، حروب المهديّة، ترجمة عبد القادر عبد الرحمن، بدون نشر، ط2، 2002م، ص 118-121.
- (21) سبق ذكره، ص 135-138.
- (22) سبق ذكره، ص 106.
- (23) شببكة، سابق، ص 210-213، منشورات المهدي، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1990، ص 8-12، 19-22.
- (24) القدال، سابق، ص 293-294، توجد إشارة لتجارة الرقيق وازديادها في فترة المهديّة في عدد من الكتابات الأجنبية، ولكن يمكن اعتماد إشارات بأكبر بدري وهو من المنتمين لأنصار المهدي في مذكراته في الجزء الثاني عن فتح الخرطوم وما تلاها من استرقاق لسكانها.
- (25) المبارك، موسى المبارك، تاريخ دارفور السياسي 1882-1898م، دار الخرطوم، الخرطوم، ط2، 1995م، ص 250-254.
- (26) نيللاند، سبق ذكره، ص 94.
- (27) المصدر السابق، ص 294.
- (28) المصدر السابق، ص 200-203-204.
- (29) المصدر السابق، ص 218-219.
- (30) السابق، ص 220.
- (31) Dally M. W, Empire on the Nile. The Anglo – Egyptian Sudan 1898 - 1934, Cambridge Uni.Press, London, 1986, P.2.
- (32) Chirchil.Winston.S, The River War, Eyre & Spottis Woode, London, 1932 bid, p.1
- (33) Ibid, pp 300- 304.
- (34) S. Intell, 7/1-5 (34) خطابات متبادلة بين سلاطين (مفتش عام الحكومة) وعلي دينار،
- (35) ثيوبولد، آلن، علي دينار آخر سلاطين الفور، ترجمة فؤاد عكود، العالمية للطباعة والنشر، القاهرة، 2005، ص، -52 53.
- (36) S. Intell, 2/3/14 (36)

(37) ماكمايكل، هارولد، السودان، ترجمة محمود صالح، مركز عبد الكريم ميرغني، أم درمان، ط 2006م، ص 129-130، عمل ماكمايكل في خدمة السودان السياسية منذ 1905م وكان المسئول السياسي لحملة دارفور العسكرية في العام 1916م.

(38) آلن ثيوبولد، سبق ذكره، ص 71-70

(39) 1/S. Intell, 2/1 خطابات بين سلاطين والسلطان علي دينار

(40) 1 (40) the Sudan and The Great War 92/19/S.Intell. يشمل هذا التقرير وصفًا دقيقًا للأوضاع التي مهدت قيام حملة كتشنر والأوضاع التي كان عليها السودانيون عشية سقوط المهديّة المهديّة، ورغم ضعف الإحصاءات الرسمية، إلا أن التقرير يوثق أن عدد السكان يزيد بقليل عن الخمسة ملايين نسمة، ويعزو هذا الضعف الملحوظ لهديّة السكان إلى الحروب المتواصلة في فترة المهديّة والمجاعة، هذا يؤكد حاجتنا إلى إعادة قراءة السجل الإحصائي والتقرير الرسمي بأنّاه وفق مقارنة نقدية تنظر لدوافع الإدارة الاستعمارية الممسكة زمام انتاج السجل الرسمي، وكذلك كل من في يده سلطة التدوين (41) S. Intell, 212-2/

(42) 7 (42) 10-1/S. Intell, 7 عرفت أنباء اشتعال الحرب في 3 أغسطس 1914 كما أرسل الحاكم العام من إجازته في القاهرة للسلطان دينار يخبره بدخول الجيوش البريطانية الحرب، ووعده بزيارة سلاطين له عند عودته من إجازته في أوروبا، علمًا بأن سلاطين كان قد تقدم باستقالته لانضمام بلده النمسا لمعسكر المحمور في الحرب.

(43) 10-1/1/S. Intell, 7

(44) ناقش جعفر محمد علي بخيت في رسالته باستفاضة تغيير تحالف الحكومة مع العناصر السابقة التي كانت تدين بالولاء المهديّة، وأطلق على هذا التحالف أسم المهديّة الجديدة G. M.A. Bakheit, British Administration and Sudanese.. 43-Nationalism (1919- 1939), PhD thesis, Cambridge, 1965, pp36

(45) يظهر أثر سياسة سلاطين في محتوى الخطابات المرسلة بين الإدارة الاستعمارية، فقد أصبح التعامل مباشر بين السلطان علي دينار والحاكم العام (ونجت)، كما تغيرت تبعًا لظروف الحرب العلاقة بين سلطنة دارفور والإدارة الاستعمارية. 10/4/S. Intell, 7, 11-2/2

(46) S. Intell, 710-1/4/.

(47) ثيوبولد، سبق ذكره، ص 102-104. Ibid,

(48) S. Intell, 26-1/

(49) S. Intell, 217/4/

(50) 7 (50) 17/4/S. Intell, 7 خطاب علي دينار إلى علي التوم في 25 مايو 1915. وتشمل إلى جانب هذا الخطابات خطابات أخرى .

(51) S. Intell, 713/3/

- (52) Churchle, ibid, p312.
- (53) ثيوبولد، سبق ذكره، ص 84-82، وكذلك ماكمايكل، سبق ذكره، ص 90
- (54) ماكمايكل، المصدر السابق، ص 90-91.
- (55) S. Intell 211/7/ from McMichael to Assistant Intelligence Director. May 1916.
- (56) ثيوبولد. آلن، علي دينار آخر سلاطين دارفور، ترجمة فؤاد عكود، الشركة العالمية للطباعة والنشر، الخرطوم، ط2، 2005م، ص.
- (57) السابق، ص 165.
- (58) محمد بن عمر التونسي، تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق مصطفى مسعد، دار المعارف المصرية، القاهرة، 1972. S. Intell 2/ 5/ 18
- (59) S. Intell, 2-18/5/
- (60) S. Intell, 2/ 211-.
- (61) من الحاكم العام إلى علي دينار 28/ مايو 1915م. Ibid, 7/ 4/ 10
- (62) امتنع السلطان علي دينار عن دفع الضريبة المقررة عليه ، والتي كانت تعتبر بمثابة (جزية) ، باعتبار أن إدارة الحكومة الاستعمارية تمثل السلطان العثماني عبر التحالف القائم وفق نص اتفاقية فبراير الموقعة في العام، وتغيرت سياسة الهدنة في خطاب بعثه السلطان 2/S. Intell, 11-2/ للحاكم العام في 6 سبتمبر 1914.
- (63) S. Intell, 218-5/, S. Intell, 21-2/
- (64) خطاب من علي الميرغني إلى علي دينار 16 سبتمبر 1915م 5/2-S. Intell, 18
- (65) Ibid, 2/ 2/ 11
- (66) 18-5/Ibid.2 فوضت الحكومة السيد علي الميرغني للرد على شكاوى السلطان ، فطلب الأول من الأخير في رد ملطف أن يرجئ مناقشة مديونته للحكومة لحين عودة سلاطين
- (67) Ibid 2/ 522-.
- (68) ثيوبولد، سبق ذكره، ص 126، -138 136.
- (69) المصدر السابق، ص 139 - 141.
- (70) انظر السابق، ص 150 - 160.
- (71) السابق، ص 160
- (72) ممداي، محمود، دارفور منقذون وناجون، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٠٢٠، ص ٢٠.
- (73) ممداي، سبق ذكره، ص 25-29، ناقش ممداي بإفاسة أزمة الدولة الوطنية التي عكستها حرب دارفور في 2003 ، وقد اتخذ مقارنة تاريخية لتحليل أوجه هذه الأزمة التي لخصها في الفشل التجاوز المصطنع الذي أسسه الاستعمار مما انسحب بدوره إلى المفاهيم والمؤسسات ، اياتنا في هذا التحليل لرؤية ممداي الناقدة كذلك للخطاب التبريري للاستعمار الذي تبنته عناصر من النخب المثقفة في دارفور.